المكتبة الثقافية
٩

أعلام الصحابة

أولو الرأى

محمد خالد

وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
الاقليم الجنوبي
الإدارة العامة للثقافة

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام اساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه .

الكتاب القادم

الشرق والإسلام

في أدب جوته

عبد الرحمن صدقي

الثمن ٢ ص

مطابع دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية
٩

أعلام الصحابة
أولو الرأى

محمد خالد

وزارة
الثقافة والارشاد القومى
الاقليم الجنوبى
الادارة العامة للثقافة


الناشر
دار القلم
١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا العظيم : محمد بن عبد الله وعلى آل بيته الكرام وصحابته العظام ، وعلينا وعلى جميع المسلمين إلى يوم الدين .

أما بعد : فإن من أسمى مراتب الثقافة العربية وأعظمها شأناً ونفعاً دراسة المبرّزين من رجال الصحابة ، وعرض جوانب موجهة من سيرهم وأعمالهم لتكون ماثلة أمام جمهور الأمة العربية فى زماننا هذا ، يرى فيها بكثرة وعِظَم، ما يحاول أن يجده نادرا فى القراءات الأجنبية من سمو روحى وهدى فكرى وكمال إنسانى ؛ فقد كان صحابة الرسول العربى الأمين من الطراز الأول فى ذلك كله ؛ ويزيدون عليه بما ازدانوا به من بساطة وتواضع وجنوح دائم إلى الأخذ بأسلوب الفطرة ، والبعد عن التكلف والتعقيد .

لقد تخرج هؤلاء الأعلام الأجلاء فى المدرسة الفكرية

العظيمة التى أنشأها الرسول الكريم ، وجعل أصول الفكر الإسلامى مادتها ، ومذاهب الرأى المحمدى عنصرها ، وتعهد بنفسه تلاميذها ، وعنى بهم جميعاً على وجه عام ثم التفت إلى كل واحد منهم على حدة ينمى مواهبه الخاصة ، ويذكى استعداده الذاتى ، حتى أصبح كل واحد منهم رأساً فى مذهبه وعلماً على اتجاهه ، ثم أصبحوا جميعاً من بعده معلمى هذه الأمة وأساتذتها الفضلاء ، فنقلوا إليها تعاليم الرسول العظيم ، ونشروا آراءه ، ولم يكتفوا بذلك بل ضربوا لها الأمثال الجيدة بأعمالهم وسيرهم فى الحياة ؛ فما شئت أن تراه من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، وصور السمو الذاتى والإعراض عن زهرة الحياة الدنيا ، والاستمساك بأهداب المثل العليا فإنك تجده شائعاً فيهم غالباً عليهم .

وسيظهر القراء أثناء استمتاعهم بفصول هذه الدراسة ، على أسلوب التعليم والتثقيف الذى كان الرسول العظيم يسلكه فى سبيل تخريج تلاميذه الأمجاد ، وكيف كان رائده فى ذلك الحب والعطف والإيحاء وضرب المثل بنفسه على الزهد فى الدنيا ، والتجرد من جميع مظاهر التعالى ، وإيثار معالى الأمور ، والتنزه عن سفاسفها .

ولا غرو أن يكون هذا شأن الرسول مع أصحابه إذ كان هو الرسول الأعظم الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه والذى وصفه فى كتابه الكريم أكرم وصف وأجله فقال : « وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »(١).

ولاَ عَجَبَ أن يكون الصحابة على ما أسلفنا من سموّ ذاتى وعلوّ خلق، وهم يعاصرون النبوة قوية مشرقة، والهدى الإنسانى فى أكمل صوره، يتنزل به الوحى صباح مساء، والرسول الكريم يتولى توجيههم بعناية المعلم الحكيم ورفق الوالد الرحيم.

وقد عُنى الكتّاب فى القديم والحديث بدراسة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فألف الأقدمون من العلماء موسوعات ضخمة فى تراجمهم، ولكنهم صرفوا عُظم عنايتهم فى تحقيق الصحبة، وحجتهم المقبولة جداً فى ذلك أن الصحابة هم رواة الأحاديث النبوية وهى مناط التشريع ومصدر الفقه والأحكام، فمن الحكمة البالغة إثبات معاصرتهم للرسول الكريم واجتماعهم به ليصح ما نقلوه عنه، أما التواريخ الخاصة بهم فقد أجملوها ووقفوا عند رءوس موضوعاتها، وقد تكفل رجال التاريخ بإبراز هذه الناحية، وتوسعوا فيها ما شاءوا.

(١) سورة القلم الآية الرابعة.

أما الكتاب المعاصرون فإنهم أفردوا كبار الصحابة بدراسات خاصة انتظمت إلى ذكر الوقائع، تحليلا لها وتعليقا عليها ولكنهم — كما أسلفنا — وقفوا عند المشهورين كالخلفاء الراشدين ومن إليهم من كبار القادة وأصحاب الفتوحات، وتركوا من عدا أولئك وهؤلاء مع أن من بينهم أفراداً مبرّزين فى نواحى الفكر ومذاهب الرأى.

وقد أردنا أن نقوم بمحاولة - نرجو أن يصاحبها التوفيق - فى هذا الموضوع فأوردنا فى هذه الرسالة تراجم لطائفة من الصحابة تجمع بين المشهورين ومن كان من حقهم أن يشهروا، ناظرين فى ذلك إلى طبيعة هذه السلسلة الثقافية التى تصدرها إدارة الثقافة بوزارة الثقافة والإرشاد تحت عنوان «المكتبة الثقافية» من التيسير والإيجاز فى إيراد الأفكار وعرض الآراء.

وتجمع التعاريف التى أنشأناها لرجال الرأى من الصحابة بين عنصرين: عنصر النصوص، وعنصر الرأى والتعليق. فأما العنصر الأول فقد نقلناه بأمانة عن مظانّه من كتب السنة والسيرة والتاريخ، وعمدنا إلى إثبات المصدر الذى نقلنا عنه حين تكون فى النص غرابة أو تَبِعة تقتضى الإسناد.

وأما العنصر الثانى، وهو عنصر الرأى والتعليق فإنه من باب

الاجتهاد الخاص ، لا تقليد فيه ولا اقتباس ، إنما هو وليد قراءة مستفيضة واستقراء للحوادث واستنتاج منطق يتسم بحسن الظن ،والتجرد من الهوى والبعد عن التعصب .

وقد حرصت هذه الرسالة كذلك على أمرين : أولهما الأخذ بمنتهى الحيطة ، والحذر عندما يتصل الكلام فى ترجمة أحد الصحابة بموضوع الفتنة التى نشبت آخر خلافة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين واستمرت فى خلافة على بن أبى طالب إلى أن اجتمعت كلمة المسلمين فى عهد معاوية بن أبى سفيان .

وقد اخترنا هذا المذهب تمشياً مع مبدأ أهل السنة الذى يقول بإحسان الظن بجميع رجال الصحابة إذ كانوا كلهم مجتهدين، رائدهم صالح الدين وخير الجماعة ، والمجتهد يخطئ ويصيب ، وهو مأجور فى كلتا الحالين .

وأما الأمر الثانى الذى حرصنا عليه فهو قصر الأحاديث النبوية التى رويناها للمترجم لهم على ما كان خاصاً بالنواحى الخلقية والاجتماعية ، وترك الأحاديث الخاصة بالتشريع ، لعدم ملاءمة المقام لها ، وتوقياً مما قد تحدثه من جدل ليس هذا مكانه .

وتعرض هذه الرسالة لألوان من الفكر مختلفة ، واتجاهات للرأى منوعة ، يذهب بعضها مذهب السياسة ، ومثله الخلفاء

الراشدون الأربعة ، ومعاوية بن أبي سفيان .

ويتجه بعضها اتجاه العلم ومثله معاذ بن جبل ، وعبد الله ابن مسعود ، وأبو هريرة .

وينحى طرف منها منحى الذكاء والدهاء ومثله عمرو ابن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وعدى بن حاتم الطائى .

ويؤثر أحد جوانبها عرض صور للرجولية الكاملة ، والفدائية المطلقة ، ومثله السعدان : سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، وسعد بن معاذ رئيس الأوس .

وهناك لون خاص من الفكر الإسلامى مثله الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى ، وتفرد به حتى أصبح علما عليه ، ولم يكن له شريك فيه . وهذا اللون قريب جدًّا من التفكير المعاصر الذى يعبر عنه بالاشتراكية ، وقد سبق به أبو ذر جميع المفكرين ، وأخلص له ، ولم تأخذه فى نشره لومة لائم ، ولا أسكتته عن الجهر به غضبة ذى سلطان .

هذا ما أردنا التقدم به أمام هذه الرسالة والله ولى التوفيق .

الصحفى : محمد خالد

أبو بكر الصديق

لحكمة سامية يعلمها الله عز وجل ، ولأمر جلل كانت المشيئة الإلهية قد قضت به فى الأزل ـ نشأت قبل النبوة رابطة وثيقة من المودة بين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى وعبد الله بن أبى قحافة أبى بكر الصديق ـ القرشى ثم التيمى . فكانا صديقين متلازمين ، وصاحبين لا يفترقان إلا لضرورة من عمل أو سفر .

وكان أبو بكر فى الجاهلية يعمل فى التجارة على غرار معظم أهل مكة إذ كانت التجارة مهنتهم الغالبة ، ولكنه كان يتفوق على كثير من أهل مهنته بالصدق والأمانة ودماثة الخلق وصفاء النفس ، وغير ذلك من الصفات الطيبة التى تلاقت فى شخصه ، وكونت منه رجلا عظيما وإنسانا كريما ..

وقد بلغ من كرامته على قريش أنها عهدت إليه بأمر من أمورها الجليلة وهو ولاية الحمالات أو الديات ، وكان من حديث هذه الولاية أن العرب قد مضوا فى عاداتهم الحميدة متعاونين على أداء ديات قتلاهم، عملا على حفظ السلام ودفع الحروب ، فكان الرجل الذى لزمه دم يلجأ إلى قومه ليعاونوه على دفع الدية ،

ولما كان الأمر كثير الحدوث استلزم قيام هيئة أو شخص ، يتلقى بالنيابة عن الجماعة المطالب التى ترد من هذا النوع ، ويستجيب إليها إذا رأى فيها طابع الجد والاستقامة . وكان أبو بكر الصديق هو رجل الحمالات فى قريش فى العهد السابق على النبوة ، لا يراجع فيما يقضى به ، ولا ينازع فيما يحكم فيه .

وكان أبو بكر الصديق عالماً بأنساب العرب ، محيطاً بتاريخ قريش خاصة والعرب عامة ، وله إلى ذلك إلمام مستفيض بآدابها وأشعارها ، وكان ذلك مما يكمل شخصيته ، ويزيد الناس حبًّا فيه ، والتفافاً حوله . فكان مجلسه ، وكانت أسماره ملتقى أهل الظَّرف من شباب قريش وفتيانها الناهضين . وقد كانت لهذه الخصوصية آثارها الحميدة فى نجاح الدعوة التى قام بها فى صفوف هؤلاء الفتيان ، حين راح يدعو إلى الإسلام كما سنفصله فيما يلى .

قال صاحب السيرة الحلبية . « ... كان أبو بكر رضى الله عنه صدراً معظما فى قريش ، على سعة من المال وكرم الأخلاق، من رؤساء قريش، ومحط مشورتهم. وكان من أعف الناس، مُكَرَّماً ، رئيساً سخيًّا ، يبذل المال ، محببا فى قومه حسن المجالسة ، وكان من أعلم الناس بتعبير الرؤيا ، ومن ثم قال ابن سيرين وهو

المقدَّم فى هذا العلم اتفاقا : كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم »[1] .

***

كان أبو بكر أول الرجال إسلاماً ، وأسرعهم استجابة إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن يتوقع منه غير ذلك ، وهو الرجل الوحيد الذى عرف النبي صلى الله عليه وسلم حقّ المعرفة قبل الرسالة ، ووقف من خصائص النبوة ومعالم الرسالة على ما لم يقف عليه غيره من ذلك ، وحسبه من الشرف فى هذا المقام شهادة الرسول الكريم له ، فقد جاء فى الأثر الشريف قوله :

« ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كَبْوَةٌ إلا ما كان من أبى بكر » .

وجاء فى آثر آخر :

« ما كلمت أحداً فى الإسلام إلا أبَى علىّ وراجعنى فى الكلام إلا ابن أبى قحافة ، فإنى لم أكلمه فى شىء إلا قبله واستقام عليه » .

ولهذا ، ولما كان من تصديقه النبي صلى الله عليه وسلم حين جهر بأمر الإسراء ، سماه الصديق .

ومنذ شرح الله صدر أبى بكر للإسلام أخذ يدعو إليه خاصة

(١) الجزء الأول ص ٢٦١ طبعة مصطفى البابى الحلبى .

إخوانه ، وصفوة أهل وده ، فأسلم على يديه رهط كبير من عظماء الإسلام منهم : عثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ابن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح .

وقد روعت قريش من شدة تأثير أبي بكر فى فتيانها ، ورأت مبلغ الخطر الذى يتهددها من جراء سلطانه على من حوله ، فاختصته بمزيد من اضطهادها ، وغالت فى العدوان عليه حتى وطئوه بالنعال ، وأخذ عتبة[1] بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين على وجهه حتى أدماه ، وسارع بنو تيم رهط أبي بكر إلى استنقاذه منهم وهو بين الحياة والموت ، وأقسموا بالله لئن مات ليقتلون به عتبة !

ولما حصر مشركو قريش النبي صلى الله عليه وسلم وبنى هاشم فى شعب أبي طالب ، واشتدت الحال بالمسلمين أذن الرسول الكريم لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فخرج أبو بكر مهاجراً إليها ، فلما بلغ بَرْكَ الغِماد[2] لقيه ابن الدَّغِنَّة سيد القارَّة[3]

(١) عتبة بن ربيعة الأموى : كان من طواغيت قريش وقد قتل يوم بدر .
(٢) برك الغماد : موضع وراء مكة بخمسة أميال .
(٣) القارة أكمة سوداء نزل عندها جماعة من العرب فسموا بها ، وكانوا مشهورين بجودة التصويب فى رمى النبال .

فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال : أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى ! .

قال ابن الدغنة : إن مثلك يا أبا بكر لايخرج ، وأنا لك جار ، فارجع فاعبد ربك ببلدك ! .

ورجع أبو بكر ومعه ابن الدغنة فأعلن أشراف قريش أن أبا بكر فى جواره . فقالوا له : مره فليعبد ربه فى داره ، ولا يؤذنا بذلك ، ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ! .

فذكر ابن الدغنة ذلك لأبى بكر فرجع إلى داره ، وأخذ يعبد الله فيها ، ثم ابتنى مسجداً بفنائها ، فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، وكان رجلا بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فكانت نساء قريش وشبانها يزدحمون عليه ويصغون فى إعجاب إلى قراءته ، وعلمت قريش بذلك فهرعت إلى ابن الدغنة ، وآذنوه بخروج أبي بكر على عهد الجوار ، وخيروه بين أن يلزمه بالاعتكاف فى بيته أو استرداد جواره ! .

ومضى ابن الدغنة إلى أبى بكر ، وأخبره بما تفرضه قريش عليه ، وقال : فإما أن ترجع إلى العبادة داخل بيتك ، وإما أن

ترجع إلى ذمّتى ؛ فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخْفِرْتُ[1] .

فقال أبو بكر : فإنى أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله تعالى ، وكان معنى هذا أن يعود من جديد بنفس مطمئنة إلى مقارفة طغيان قريش وتحمل أذاها . وقد كان ! .

وهكذا كان سلم أبى بكر وحربه دعوة خالصة للدين ، وحثًّا ملحًّا على الدخول فى الإسلام ، والخروج على عبادة الأوثان والأصنام ، ولو شئنا المضى فى سرد تاريخه فى هذه الناحية لأتينا من ذلك بالعجب العجاب ، ولكننا نكتفى بهذا القدر الذى أوردناه ، ونكل من يريد التوسع فى هذه المرحلة من حياته إلى كتب السير والتاريخ .



(١) أخفرت : أى اعتدى على من هو فى خفارتى وجوارى .

الهجرة إلى المدينة

كان من أهم الأحداث فى تاريخ أبى بكر الصديق هجرته إلى المدينة مصاحباً للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان هذا الحدث التاريخى العظيم فى حاجة ماسة إلى رجل يدبر أمره ، ويرتب شئونه ، ويتم ذلك كله فى حرص شديد وحذر عظيم ، إذ كانت قريش قد وقفت على تحالف الرسول الكريم مع الأنصار فى يثرب ، وتوقعت خروجه إليهم ، ورأت فيهم حليفاً شديد البأس قوى المراس، ومن أجل ذلك شددت الرقابة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أجمعت أمرها على قتله ، وقررت أن تشترك كل عشيرة من عشائرها بفتى جلد ، فى العدوان عليه ؛ حتى يتفرق دمه فى العشائر ، ويعجز بنو هاشم عن مواجهة عشائر قريش جمعاء ! . .

وبينما كانت قريش تعد العدة لهذا الغدر الرهيب ، كان أبو بكر يتخذ الأهبة للهجرة ، فيشترى رواحل السفر ، ويكترى الدليل الذى يقود الرحلة ، ويجند فى ذلك أبناءه ومواليه ، وكان النصر حليفه والنجاح رائده . فقد حظى برفقة الرسول الكريم ، وخرجا معا ليلة التبييت إلى غار جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال ، ثم

خرجا منه بعد أن استكانت قريش إلى العجز عن العثور عليهما والفشل فى اللحوق بهما ...

قال أبو بكر : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن فى الغار : لو أن أحدهم ينظر إلى قدميه لأبصرنا تحتهما ! فقال :

« ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟! » .

* * *

ابتدأت المرحلة الوسطى من تاريخ أبى بكر باستيطان المدينة وتطورت معها وسائله فى الدعوة إلى الإسلام . لقد كان فى مكة يدعو إليه خائفا يترقب ، تحيط به وسائل الكيد والغدر ، وتتهدده أسباب الهلاك والدمار فى كل خطوة من خطواته، وفى كل مرة من غدواته وروحاته ، أما فى المدينة فقد حف به الإخوان ، والتف به الأمان ، وأصبح بين أناس هو أعز عليهم من أنفسهم ، وأكرم عليهم من بنيهم ؛ أولئك هم أنصار الله ونبيه العظام ، وأبناء الأوس والخزرج الكرام . .

أصبح أبو بكر فى هذه المرحلة من الرسول صلى الله عليه وسلم بمنزلة الوزير الأول: يستشيره فى كل أمر ، ويعرض عليه كل تدبير ؛ وينتدبه لمهام الشئون ، ويحيل عليه كبريات المسائل ، وكان عمر بن الخطاب بمثابة الوزير الثانى . وندر أن يرد اسم

أبي بكر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم فى شأن من شئون الدين أو الدنيا إلا ورد فيه اسم عمر بن الخطاب . .

وشهد أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم جميع غزواته التى خرج إليها بنفسه لم يتخلف عن واحدة منها ، وشهد بعضاً مما لم يشهده الرسول الكريم . وكان مكانه فى جميع الغزوات لصق الرسول الكريم ، على رأس جماعة من كبار المهاجرين والأنصار يلتفون حوله ، ويؤلفون من أنفسهم درعاً لوقايته .

وكما تطوع أبو بكر بنفسه فى سبيل الله يعرّضها للمكاره ، ويزج بها فى الخطوب ، لم يبخل بشيء من ماله فى هذه السبيل ، بل أنفق جميع ما كان يملكه فيها ! لقد جاء الإسلام وهو صاحب أربعين ألف درهم أقرضها جميعاً لله طيبة نفسه ، مطمئناً فؤاده . ولقد كان لنبيه مثل هذا الاطمئنان وتلك الطيبة . فقد ذكرت كتب السيرة أن أبا بكر لما هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم ، جاء أبوه الشيخ أبو قحافة وهو ضرير يتفقد أحفاده ـ وكان لا يزال على الشرك ـ فرثى لهم لأن أباهم أخذ ماله وتركهم فقراء . فذهبت أسماء ابنة أبي بكر ـ وهى صبية دون العشرين ـ ولفت عدداً من الحجارة على هيئة الدنانير فى خرقة ، ووضعتها فى كوّة مرتفعة ، ثم جاءت إلى جدها تبشره بأن أباها لم يأخذ

ماله معه بل تركه لعياله ، وأخذته ووضعت يده على الخرقة ، فتحسسها واطمأن بذلك فؤاده !.

وكانت الوجوه التي أنفق أبو بكر ماله فيها كثيرة مختلفة ، وهي تتلاقى جميعاً فيما اصطلح على تسميته بسبيل الله . فقد بدأت بشرائه المستضعفين من الأرقاء الذين أسلموا وتعرضوا لعذاب الحريق من طواغيت قريش، وكان عددهم سبعة ، منهم : بلال بن رباح وعامر بن فهيرة، واستمرت بعدذلك في معونة فقراء المسلمين وتجهيز الغزاة وإقراء الضيوف وما إلى ذلك من المكارم والمبرات ، وكان أعظمها على الإطلاق خروجه من ماله كله مرة أخرى لتجهيز غزوة العسرة أوغزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة .

ولقد تمدح النبي صلى الله عليه وسلم بسخاوة نفس أبي بكر فقال :

« إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوّة الإسلام . لا تبقينّ في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر [1] » .

---

(١) الخوخة باب صغير داخل باب كبير، وكان الصحابة يصنعون هذه الخوخات في بيوتهم المطلة على المسجد ليدخلوا منها . وقد كان حديث الرسول الكريم هذا في مرضه الذي مات فيه .

وكان الرسول الكريم يحب أبا بكر حباً جماً ، ولا يدخر وسعاً فى تبجيله وتكريمه ، ولا يدع مجالا للشك فى خصوصيته به وتقديمه إياه ، وكيف وهو صاحبه الأول وحبيبه المفضل .

سأل عمرو بن العاص النبى الكريم : من أحب الناس إليك ؟ فقال : « عائشة » ! فقال عمرو : أريد من الرجال ! فقال : « أبوها »[1]

وروى البخارى الحديث الآتى عن أبي الدرداء ، قال :

كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« أما صاحبكم فقد غامر[2] »

وجاء أبو بكر فسلم ، وقال يخاطب الرسول الكريم :

إنى كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه[3] ، ثم ندمت فسألته أن يغفر لى فأبى على ، فأقبلت إليك ! .

---

(١) الجزء الخامس من البخارى باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أى بذل نفسه فى سبيل الله من أول الأمر وفاز بما أراده .

(٣) أسرعت إليه : أى أسأت إليه .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يغفر الله لك يا أبا بكر » (قالها ثلاثاً).

ثم إن عمر بن الخطاب ندم ، فأتى منزل أبي بكر ، فسأل : أثمَّ أبو بكر ؟ فقالوا : لا ، فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسلم فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمعَّـر[1] حتى أشفق أبو بكر ، فجثا على ركبتيه ، وقال : يارسول الله . والله أنا كنت أظلم ! (قالها مرتين) فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« إن الله بعثني إليكم ، فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ! وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لي صاحبي » (قالها مرتين) فما أوذي أبو بكر بعدها ! .

وكان أبو بكر أشبه الناس خلقاً بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ينزع إلى الرحمة ، ويجنح إلى الرفق ، ويؤثر الحسنى ، وقد تمثلت هذه الصفات على خير وجه في مسألة أسرى واقعة بدر ، وهل يقتلون أو يفتدون ؟ فقد جاء رأي أبي بكر فيها مطابقاً لما تجيش به نفسه من الابقاء على الروابط الاجتماعية الطيبة ، إذ أشار باستبقائهم واستراح إلى رأيه جمهور الصحابة ، وأشار عمر باستئصالهم ،

---

(١) يتمعر ، يتغير .

ووافقه على ذلك رجلان أو أكثر قليلا ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالرأى الأول . ولكن الله عاتبه فى ذلك فيما بعد .

ولما كانت هذه الواقعة عظيمة الدلالة فى شرح نفسية أبي بكر ، كبيرة القيمة فى تصوير عواطفه وأحاسيسه ، فقد آثرنا نشرها على وجه التفصيل .

استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس فى الأسارى يوم بدر فقال : « إن الله قد مكنكم منهم » .

فقام عمر بن الخطاب ، فقال : يارسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي صلى الله علية وسلم ، وقال :

« يا أيها الناس إن الله قد مكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس » .

فقام عمر ، فقال : يارسول الله اضرب أعناقهم.

فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عاد فكرر ما قاله قبلا ، فقام أبو بكر فقال :

يارسول الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم ، أرى أن تستبقيهم ، وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لنا عضداً ! . .

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت من غير أن يقطع برأى فى الموضوع ؛ ثم خرج بعد قليل ، فقال :

« إن الله ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدن قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة ! . مثلك يا أبا بكر فى الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة ، ومثلك فى الأنبياء مثل إبراهيم حيث يقول : فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم »[1] . ومثلك يا عمر فى الملائكة مثل جبريل ، نزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى ، ومثلك فى الأنبياء مثل نوح إذ قال :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين دَيَّاراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »[2]

ثم قضى الرسول الكريم باستبقاء الأسرى وقبول الفداء منهم ، وبعد ذلك نزل الوحى بتفضيل الرأى الآخر ؛ يقول الله عز وجل :

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ،

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦ .
(٢) سورة نوح الآية ٢٦ .

تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم »[١]

وقد بين الله عز وجل فى الآيات التالية لهذه الآية كيف أنه قد غفر للمؤمنين هذا التدبير ، وأحل لهم مال الأسرى فقال : « فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً »[٢]



(١) سورة الأنفال آية ٦٧ .

(٢) سورة الأنفال آية ٦٩ .

خليفة رسول الله

لم يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم نص صريح في استخلاف أبي بكر من بعده ، ولكنه رشّحه لهذا المنصب الجليل بطائفة من الأمور التي تقتضي إسناد الرياسة إلى صاحبها ، منها :

١ ــ إسناد وظيفة الصلاة بالناس إليه أثناء مرضه الذي انتهى بوفاته ، وإصراره على ذلك حين استعانت السيدة عائشة بنت أبي بكر بالسيدة حفصة بنت عمر ـ وهما من أمهات المؤمنين ـ على أن تنحي أباها عن هذا المنصب ، وتقدم عمر له وقوله لهما : « إنكن صواحب يوسف عليه الصلاة والسلام ، مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

وكانت حجة عائشة في تنحية أبيها عن هذا المنصب قائمة على اجتهادها الخاص فقد صح لديها أن المسلمين سيتشاءمون بكل من يقوم مقام النبي صلى الله عليه وسلم، فأرادت أن تجنب أباها ذلك.

٢ ــ تقديم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر على جميع الصحابة في كل عمل مهم ولا سيما تكليفه إياه أن يحج بالناس في السنة التاسعة من الهجرة حين لم يكن هو على رأسه .

٣ — جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن شيء ، فأمرها أن ترجع إليه فى العام المقبل . فقالت يارسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك . (تعنى الموت) فقال : « إن لم تجديني فائتى أبا بكر » .

٤ — إقتناع جمهور الصحابة بأولوية أبى بكر وقدم سابقته، وتوافر جميع الشرائط لرياسته ، ومن أجل ذلك لم تلبث الزوبعة التى أثارها بعض الأنصار بسقيفة بنى ساعدة حول منصب الخلافة أن تكشفت عن التفاف يكاد يكون تامًّا حول أبى بكر ، وتعاون صادق معه فيما واجهه الإسلام من خطوب جسام عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

تطور عظيم فى شخصية أبى بكر :

كان تسليم جماعة المسلمين بإمامة أبى بكر قائماً على سابقته فى الإسلام وتقديم الرسول الكريم له ومحبته إياه ، كما بينا من قبل ، ولكن لم يكن يخطر ببال كثير من الصحابة أنهم حين بايعوا أبا بكر بالخلافة قد بايعوا الرجل الوحيد الذى تؤهله مواهبه لمواجهة الحوادث الجسام التى ستثور فى وجهه منذ اليوم الأول لولايته الأمر . بل هى كانت قد سبقت هذا التاريخ

ببضعة أيام . ذلك أنه ما كاد خبر مرض الرسول الكريم ينتشر في الجزيرة العربية حتى هب المتنبئون ، وانتقض معظم القبائل ومنع أكثرها الزكاة ! .

وقد انضافت إلى هذه الحوادث مهمة شاقة تتعارض طبيعتها مع منطق الحوادث ، لكن أبا بكر صمد لها، وأضافها كذلك على ما يحمله عاتقه من أعباء ، وكان التوفيق حليفه .

وبيان ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أعد جيشاً كبيراً أثناء مرضه الأخير جند فيه معظم كبراء الصحابة كأبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص ، وحشد فيه خلاصة جنود المسلمين ، وجعل على رأسه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره بالسير إلى المكان الذي قتل فيه أبوه وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة في غزوة مؤتة على حدود فلسطين سنة ثمان من الهجرة ؛ لينتقم لشهداء المسلمين ، ويؤدب الجناة الآثمين .

كان هذا الجيش قد أكمل استعداده وتهيأ للسفر ، ولكن اشتداد المرض بالرسول الكريم حمل أسامة على الانتظار . فلما اختار الله رسوله إلى جواره ، وجاءت أخبار الفتن التي ملأت أرجاء الجزيرة . أصبح من الصعوبة بمكان سفر هذا الجيش ؛ إذ أن ذلك يخلي يد الخليفة من صفوة جنوده الذين يمكن توجيههم

لمحاربة الفتن الثائرة ، ذلك إلى أنه يجرد المدينة نفسها من حامية تدافع عنها ، وقد كانت الإشاعات قد استفاضت بأن بعض القبائل تعد العدة لغزوها !.

فى هذه الفترة العصيبة ارتأى كبار الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب إرجاء خروج جيش أسامة ، وعرضوا رأيهم على أبى بكر ، فغضب غضباً شديداً ، واستنكر أن يبدأ عمله بتعطيل جيش كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر بتسييره ، وقال : والله لو تخطفتنى الذئاب والكلاب لم أردَّ قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعاد كبار الصحابة يقترحون على أبى بكر أن يغير رياسة الجيش فيستبدل بأسامة بن زيد أحد ذوى الأسنان والتجربة من الصحابة . وكان أسامة لمَّا يبلغ العشرين من عمره . ولكن أبا بكر أبى أن يسمع لأحد فى هذا الموضوع وقال : أيستعمله النبى صلى الله عليه وسلم وأنزعه ؟! ولكنه استأذن أسامة فى استبقاء عمر بن الخطاب معه .

ولما سار أسامة بالجيش ودعه أبو بكر ، وسار إلى جانبه ماشياً ساعة من الزمن يوصيه، فقال أسامة : إما أن تركب يا أمير المؤمنين ، وإما أن أنزل . فقال : لستُ براكب ولستَ بنازل !..

ومضى أسامة والجيش إلى الجهة التى وجهها، وحقق الغرض الذى سار من أجله، فروّع المشركين، وقتل قاتل أبيه، وأسر وغنم وعاد مسرعا!

وقد كان تدبير أبى بكر بشأن مسير جيش أسامة آية من آيات الحكمة والبراعة، وفاتحة أمجاد عظيمة هيأها الله للإسلام على يديه، فقد كان لمسير هذا الجيش من الأثر فى ترويع نفوس المرتدين من العرب أكثر مما لو كان لم يبرح المدينة، ذلك أن المعنى البارز لمسيره أن قوة المسلمين كبيرة جدًّا، بحيث لا يؤثر فيها خروج هذا الجيش، وهذا ما فهمه المرتدون وأجفل منه أعداء الله ورسوله، وتحدثت به الجزيرة العربية كلها.



العزيمة الكبرى

لم يشهد التاريخ عزيمة اجتمع لها ما شاءته من القوة والتصميم مثل ما كان من ذلك لأبى بكر حين قام بالأمر وسط فتن ثائرة ونفوس فائرة ، وارتداد من العرب عن الدين الحنيف ، وتواطؤ يكاد يكون إجماعاً على ترك ركن من أركان الإسلام وهو الزكاة . وقد كان هناك رأى ظفر بقدر لا بأس به من التأييد وهو أن يغمض الصديق طرفه عن مانِعِى الزكاة ، ولو لأجل مسمى ، حتى يسوى حساب المتنبئين والمرتدين ، ثم ينقلب إلى الباخلين بأموالهم على الصالح العام . ولكن أبا بكر مضى لِطِيَّتِه فى تحقيق مثله العليا ، ورفض أنصاف الحلول ، وأعلن فى دوى وجلجلة أنه سيحارب ولو من أجل عقال كان يدفعه صاحبه للنبي صلى الله عليه وسلم ومنعه إياه !

وبلغت عزيمته الكبرى قمتها حين أعلن أنه سيقود الجيش بنفسه ليواجه أعداء الإسلام ، ولكن كبار الصحابة أقنعوه بأن الخير فى أن يبقى بالمدينة ، يوجه الجيوش ويدبر الأمور .

وعلى ذلك جيّش الخليفة الجيوش ، وأمَّر عليها الأمراء ، وسيرها إلى الجهات الأكثر خطراً والأقرب إلى المدينة مكاناً ،

وقد برز من بين أمراء الجند قائد عظيم هو سيف الله خالد ابن الوليد ، فقد تحمل العبء الأكبر من حروب الردة ، وتأديب القبائل المانعة للزكاة ، ثم أبلى البلاء الذى لا نظير له فى معركة بنى حنيفة ومسيلمة الكذاب ! (١) .

أمر عجيب

لقد كان من أعجب الأمور إن لم يكن من خوارقها أن أبا بكر الصديق أمكنه أن يتغلب على أعداء الإسلام من العرب على الرغم من أن جيوشهم كانت أضعاف جيشه ، وعتادهم أكثر من عتاده ، ومواقعهم أقوى تحصيناً من مواقع جيوشه فى عام واحد أو أكثر قليلا ! .

بل هناك ما هو أعجب وأغرب ألا وهو أن هذ الرجل الهادئ الوديع قد انقلب إلى ما يشبه الصواعق تمحق كل ما يقابلها ، والتيارات العنيفة تجرف كل ما يعترضها ، لقد اكتسح مدّه مسيلمة الكذاب ، وطليحة بن خويلد ، وسجاح

---

(١) ادعي مسيلمة الكذاب النبوة قبيل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، والتف حوله قومه وكانوا كثيرى العدد . وقد انتصر عليهم خالد بن الوليد وقتل كذابهم (انظر مطولات التاريخ) .

ومن وراء هذه الأسماء من قبائل وأذناب ، ولم يقف عند هذا الحد ليستريح ويريح جيوشه بل قذف بها إلى دولتى الدنيا على ذلك العهد - وهما الفرس والروم - تدك معاقلهما ، وتنتهك أراضيهما ، وتتوغل فيها ، تتقدمها الإرهاصات ، وتحيط بها الانتصارات ، ويحف بها المجد من كل جانب .

لقد كانت خلافة أبي بكر أقل من ثلاثة أعوام . ولكن ما أنجزه فيها من الأعمال الجسام كان من شأنه أن يستغرق عشرات الأعوام ، ولكن الله بارك فيه وعليه ، وجعل أيامه شواهد خالدة على قوة العزيمة ، ومضاء الهمة والإقدام .

ومن آيات الترفع الروحى التى اتسم بها أبو بكر أنه أبي على العائدين إلى الإسلام بعد ارتداد أن يساهموا فى حرب الروم والفرس ، وكأنه آثر أن يمهلهم مدة يتذوقون فيها حلاوة الإيمان من جديد ، أو أراد أن يعرفهم بأن الدعوة ماضية إلى وجهتها من غيرهم ، ومهما يكن من شىء فإن هؤلاء الناس لم يشتركوا فى الجهاد إلا على عهد عمر بن الخطاب .

مكثت خلافة أبي بكر سنتين وثلاثة أشهر تقريباً ، وتوفى وهو ابن ثلاثة وستين عاما .

عمر بن الخطاب

يبهر الدارس لسيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمر باهر حقـًّا ذلك هو : كيف تسنى لهذا الرجل الناشيء فى حضانة الجاهلية ، المنتمى إلى بيئة اجتماعية لم تمسها ثقافة ولا هذبتها حضارة — أن يبلغ ما بلغ فى مجال السياسة والتدبير من تفوق مبرز بل نبوغ معجز ! .

إن هذا الرجل الذى جاء بالعجائب فى سياسته ، لم ينشأ فى بيت ملك ، ولا ورث تقاليد بيئة سياسية ، فكيف تهيأ له أن ينشىء دولة من الطراز الأول فى النظم والإحكام واستقرار الأمور وسداد التوجيه ؟ ! . .

إنها الفطرة السليمة لاقت فى كنف النبوة مجالا صالحاً فترعرعت ، وإنه الفهم الذكى لتعاليم الإسلام ومبادئه القويمة ؟ ! ومعهما نور من الله يضىء له طريقه ، وقبس من حكمته يشرح صدره لمحاسن الأمور ، ويجنبه مساوئها .

ومهما يكن من شىء فإن سيرة هذا الرجل الفذ لم تتكرر من بعده فى شخص حاكم أو أمير ؛ وغاية من يرضى الناس عنه أن يشبهوه به وكفاه فخراً بذلك !.

فى ساعة من ساعات التجلى الإلهى ، وفى أشد أوقات الدعوة الإسلامية حرجاً وأعظمها شقوة وعناء ، اتجه النبى صلى الله عليه وسلم إلى ربه الأعلى ، ودعاه أن يعز الإسلام بأحد العمرين عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام (أبى جهل) ، وكانا كلاهما من أشد قريش عداء للإسلام ، وكراهية للرسول الكريم ، وقد شاءت الإرادة الإلهية أن تجعل هـــذا المجد من نصيب عمر ابن الخطاب ، فأسلم وكان الرجل الذى أعز الله به الإسلام ، وجعل على يديه ـ فيما بعد ـ إرساء قواعد دولته ، ونشر لوائها فى أعظم بقاع الأرض حضارة وعمراناً ! .

كان إسلام عمر فتحاً مبيناً للإسلام ، ونصراً عظيما لدولته ، ولسنا نجد شهادة على ما نقول أعظم من شهادة الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود حيث يقول : « إن إسلام عمر بن الخطاب كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصرا ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه » .

أسلم عمر حين كان النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ـــ وهم يزيدون قليلا على الأربعين ـــ مستخفين فى دار الأرقم ، فلم يرضه هذا التخفى ، وأشار على الرسول الكريم

من هذا المخبأ ، وسار المسلمون صفًّا واحداً على رأسه حمزة ابن عبد المطلب وفى مؤخرته عمر بن الخطاب . ونظرة قريش إلى هذا الحدث الكبير ، ولم تستطع أن تحرك ساكناً ! .

وهاجر جميع الصحابة من مكة إلى المدينة خفية ، ولكن عمر أعلن قريشاً بزمن هجرته ومكانها ، وقال : من أراد أن تثكله أمه فليلقنى هناك ! .

ولازم عمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وحفظ عنه ، وتأثر به وجاهد معه ، وصحبه فى جميع الغزوات وكان منه بالمنزلة التى تلى منزلة أبى بكر الصديق ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك — فى شيء من التفصيل والبيان — أثناء ترجمة أبى بكر ! .

وكان الرسول الكريم يأنس إلى رأيه فى كثير من المسائل ويعجبه حزمه ، ويغضى عن الشدة التى تجرفه إلى التطرف فى بعض الأحيان ! .

وقد نزل الوحى برأى عمر فى بعض مسائل التشريع ، منها مسألة أسرى بدر[1] ، ومنها مسألة الحجاب وتحريم الخمر .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رأيتنى فى المنام ، والناس

---

(١) تراجع هذه المسألة فى سيرة أبى بكر .

يعرضون على ، وعليها قمص منها إلى كذا ومنها إلى كذا من أبدانهم ، ومر على عمر بن الخطاب يجر قميصه » ! . فقيل : يا رسول الله ، ما أوّلت ذلك ؟ قال « الدين » ! .

وكان عمر رجلا غيوراً جداً ، وقد جاء فى هذا الشأن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « دخلت الجنة(١) فرأيت فيها قصراً ، وسمعت فيه ضوضاة ، فقلت : « لمن هذا » فقالوا لرجل من قريش فظننت أنى أنا هو ! فقلت : من هو ؟ فقيل : عمر بن الخطاب ، فلولا غيرتك يا أبا حفص لدخلته ! » .

فبكى عمر ، وقال : أعليك أغار يارسول الله ؟ !

لما استخلف أبو بكر اتخذ من عمر مستشاره الأول فى مهام الأمور ، ثم وكل إليه وظيفة القضاء ، وقال له : اقض بين الناس فإنى فى شغل ، فكان عمر أول قاض معين فى الإسلام .

ولما أحس أبو بكر دنو أجله ، اختار أن يعين خليفته من بعده حتى يجنب المسلمين ما عساه أن يحدث من اضطراب وكان عزمه معقوداً على استخلاف عمر ، ولكنه أراد أن يستأنس برأى

---

(١) بالاستئناس إلى الحديث السابق يمكن أن يلحق هذا الحديث بحديث الرؤيا المنامية .

بعض كبار الصحابة ، فاستدعى عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما ، واستفتاهم فى أصلح الرجال لولاية الأمر من بعده فأجمعوا على عمر بن الخطاب ، وعلى ذلك كتب عهده باستخلافه، وأمضى الصحابة رأيه بالإجماع .

أمير المؤمنين :

كان الناس ينادون أبا بكر بقولهم : ياخليفة رسول الله ، فلما ولى عمر نادوه أولا : ياخليفة خليفة رسول الله على استكراه ، لما فى هذا اللقب من تكرار ، وقد تكفلت الصدفة بحل هذا الإشكال ، ذلك أنه حدث أن سمع بعض الصحابة آخر يقول : سأذهب إلى أمير المؤمنين (يعنى عمر) فذهب إلى الخليفة واقترح عليه هذا اللقب فأجازه ، ومن ثم أصبح يلقب به هو ومن جاء بعده من الخلفاء ! .

* * *

ولى عمر الخلافة وقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، إذ تجاوزت الجزيرة العربية كلها ، وامتدت إلى مساحات واسعة من الشام والعراق ، وكان أهم ما يشغل باله من الناحية السياسية إقرار النظام الداخلى للدولة ودعم قوتها المعنوية وبيان أن كل قوة عداها

سواء أكانت لشخص أم لهيئة إنما هي مستمدة منها متفرعة عليها !.

وكان الحافز الذي وجه عمر هذا التوجيه، هو مارآه إثر وفاة الرسول الكريم من حادث السقيفة[1] وما استنتجه من أنه ما لم يسد المبدأ الذي أسلفنا وصفه فإن من المحتمل أن تتخذ السابقة إلى الإسلام . أو القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضعاً ينتهي بتصدع بنيان الدولة وقيام الفتن والاضطرابات !.

قد نكون أفلحنا في وصف الفكرة التي هيمنت على عمر سني خلافته، وقد يجد بعض الناس أنها لا تزال في حاجة إلى مزيد من البيان، ومن أجل ذلك نقول لهؤلاء المستزيدين : إن عمر كان يخشى أن يصيب الدولة الإسلامية في عهده ما أصابها آخر خلافة عثمان بن عفان وأيام خلافة علي بن أبي طالب، فكأنه كان يرى بظهر الغيب الخطوب التي يمكن أن تحدث إذا لم تسد المبادئ، وتتوارى الشخصيات، ومن أجل ذلك حرص من أول الأمر كل الحرص على دعم الدولة وتمكين سيادتها، ووضع الشخصيات الكبرى وراء ستار يحجبها عن الأنظار ؛ ولا تظهر إلا بمقدار !.

---

(١) حادث السقيفة هو اجتماع الأنصار اثر وفاة الرسول لترشيح سعد ابن عبادة خليفة، وقد أشرنا إلى ذلك في ترجمة أبي بكر.

وكان أول قرار تنفيذى اتخذه عمر لهذا المبدأ الخطير هو عزل كبار قادة الجيوش الذين طارت شهرتهم كل مطار مثل خالد ابن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، والمثنى بن حارثة الشيبانى ؛ وقد علل ذلك بأنه خاف أن يفتتن الناس بهم فيظنوا أنهم ينتصرون بهم لا بالله .

وهذا التعليل يطابق ما ذكرناه آنفا من حرصه على سيادة المبدأ وإغفال الأشخاص . وهو كذلك لا ينفى مظنة افتتان الأشخاص بأنفسهم ، وتجاوزهم حدود الإعجاب الصامت إلى مجال العمل الدافع ! .

واتخذ عمر بشأن كبار الصحابة نظاماً هو أشبه بنظام « تحديد الإقامة » المعروف حديثاً فقد كانوا لا يبرحون المدينة إلا بإذن منه ، وبشرط أن يكون هناك سبب يقتضى الخروج كالحج أو العمرة وما إلى ذلك ! .

وقد غالى عمر فى تطبيق مبدئه حتى أخل فى بعض الأحيان بناموس الكرامة ، ومن ذلك ما رواه المؤرخون . من أن سعد بن أبي وقاص جاء إلى مجلس عمر وكان عنده خلق كثير حضروا ليأخذوا أنصبتهم من مال عام فدلف سعد يتخطى الناس إلى عمر فضربه بالدِّرَّة ، وقال : إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله

فى الأرض ، فأجبت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك ! .

وقد انتهت هذه الواقعة بنكتة طريفة تلك هى أن سعدا رأى نفسه معتدى عليه من غير جريرة ، فتهيأ للالتجاء إلى الله . وخشى عمر أن يدعو عليه ، وكان مستجاب الدعوة ، فناوله الدِّرة وقال له : اقتص لنفسك ، أى ولا تدع الله على ، فرضى سعد وغفرها له !

واشتدت هيبة عمر فى الناس حتى خافه الصغار واتقاه الكبار ، وراحت مهابته تلاحق رجال الدولة فى كل مكان . وكان كل واحد منهم يحسب حساب الخليفة فى كل عمل يقارفه حتى كأنه على رأسه ، ومن آيات الله الكبرى أن المسلمين قد قبلوا هذه السياسة الحازمة من غير برم أو كراهية . ذلك أنهم كانوا موقنين بأن خليفتهم يخشى الله فيهم ، ولا يقدم على ظلم أحد من الرعية ، ولا يتخذ من سلطانه سبباً للاستعلاء عليهم ، أو إيثار نفسه أو أى واحد من قرابته بخير دونهم !

وكان من محاسن عمر التى لم تتهيأ لأحد من بعده أنه أخذ يزداد تقشفاً كلما كثرت نعم الله على المسلمين . فكان يلبس الثياب المرقعة ، ولا يتخذ إلا قميصاً واحدا يضطر إلى الاحتجاب عن الناس عند ما يغتسل ! .

وحدث مرة أن أرسل إليه أحد الأمراء قماشاً فوزعه على الصحابة بالتساوى ، ولم يكن نصيب الفرد يكفى لعمل ثوب كامل منه ، ولكن أحد المسلمين شاهد عمر بعد ذلك وهو يلبس ثوباً كاملا من هذا القماش فاحتجّ عليه ، فهتف عمر بابنه عبد الله ، وقال : أجب ياعبد الله ، فوقف وأخبر المحتج أنه تنازل لأبيه عن نصيبه من هذا القماش وبذلك تهيأ له أن يتم ثوبه منه ! .

وهكذا كان المسلمون سعداء بعمر ، يستقبلون تدابيره الشديدة بالرضى والقبول ؛ لأنهم مؤمنون بصدقه موقنون بعدله وأنه لا يريد من الملك شيئاً لنفسه أو لقرابته . وهكذا استقر الأمر وساد النظام ، ومضت أمور الدولة على خير مايرام ، وذهبت الدعوة الإسلامية كل مذهب ، وكان الفضل فى كثير من الفتوحات وإقبال الناس على الدين لما شهر عن عمر نفسه ـ عند أهل العراق والشام الأصليين ـ من العدل والزهد والاستقامة . لقد كان عمر لا يفتأ يذكر ولاة المسلمين فى الأمصار التى فتحت عليهم بحق مواطنى هؤلاء الأمصار الأولين من غير المسلمين عليهم ووجوب رعايتهم وتمكينهم من الأسباب التى تكفل لهم حياة صالحة مطمئنة ، ولم ينس أن يؤكد هذا المعنى فى الوصية التى أوصى بها وهو يحتضر ! .

وأصر أهل بيت المقدس على أن لا يصالحوا المسلمين إلا على يد عمر فاستجاب لرغبتهم وسافر إليهم وعقد معاهدة الصلح معهم ، وما كان لهؤلاء الناس أن يشترطوا حضور عمر إليهم لولا أنهم قد سمعوا بعدله ، ورأوا أنهم سيكونون أسعد حظا وأصلح حالا إذا اتصلوا به رأساً .

* * *

لقد رأينا عمر فى صورة الحاكم الحازم الشديد فى مواطن الشدة ، ويحسن بنا أن نعرضه فى صورته الأخرى ، صورة الأب الشفيق على بنيه والراعي الرحيم لرعيته ، وهذا الجانب من نفسيته زاخر بالمثل ، غنى بالوقائع حتى أننا لو جارينا الرغبة فى سرد بعضها لما نهض بها المقام ومن أجل ذلك نكتفى بذكر واحدة منها ، وهى واقعة المجاعة التى امتحن الحجاز بها على عهده وسميت عام الرَّمادة[1] .

احتبس المطر عن الحجاز فى السنة السابعة عشرة للهجرة ، فاحترق المرعى . وهلكت الماشية . وجاع العرب إذ كان غذاؤهم قائماً على ألبانها ولحومها ، فهرعوا إلى المدينة مستغيثين بالخليفة،

(١) سميت عام الرمادة ؛ لأن المطر لما حبس عن الأرض احترق النبت واستحال لونه إلى لون الرماد .

وخف عمر إلى استقبالهم ، وأنزلهم بساحات المدينة ومقابرها وكل فضاء بها ، وعين طائفة من خيار المسلمين لتسجيل أسماء القادمين ، وتعيين أماكن إقامتهم والإشراف على توصيل الأطعمة إليهم .

ثم كتب إلى ولاة الأمصار ينبئهم بهذه المحنة ، ويطلب إليهم أن يمدوه بأقصى ما يستطيعون جمعه من مواد الطعام : حبوب أو دقيق أو سمن أو زيت على أن يكون من أخصر طريق وأقرب وقت مستطاع .

وراح عمر يبكى آناء الليل وأطراف النهار ، ويدعو الله أن لا يجعل هلاك أمة محمد على يديه ، ثم صلى صلاة الاستسقاء مع عامة المسلمين بالمدينة ، فاستجاب الله لهم ، وأنزل عليهم الغيث مدراراً عدة أيام متتاليات ، حتى شربت الأرض بعد عطش شديد ، وانتعش أهل الحجاز بعد امتحان ثقيل ! .

وكان عمر قد حرم السمن على نفسه وآله أثناء المجاعة ، والتزم طعام اللاجئين — كما أسلفنا — وكان هذا الطعام يطهى بالزيت وكان بطنه لا يطيقه ، فحدث مرة أن تقرقر[1] بطنه بشدة

(١) تقرقر البطن هو إحداث صوت تقوم به الأمعاء .

فقال يخاطبه : تقرقر تقرقرك ، إنه ليس لك عندنا غيره[1] حتى يحيا الناس !.

ونظر عمر عام الرّمادة إلى بطيخة فى يد بعض أطفاله . فقال : بخ ..بخ .. يابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى ! فولى الصبي هارباً وهو يبكى خوفاً من أبيه ، ولم يهدأ عمر إلا بعد أن قيل له : إن الصبي اشترى البطيخة بكف من نوى جمعه بنفسه !...

* * *

هذا هو عمر بن الخطاب فى صورتيه : صورة الشدة والحزم وصورة اللين والرحمة ، يكاد المرء يحسب من شدة تباينهما أنهما لرجلين لا لرجل واحد ، ولكنه يحس أنهما جميعاً صورة رجل تجرد عن الهوى ، وأخلص نفسه لله ، واتخذ من المسلمين جميعا أبناء له يسوسهم بالعدل والقسطاس المستقيم !.

كان من رأى عمر أن تبقى المدينة مدينة عربية خالصة ، ومن أجل ذلك حرم على الصحابة أن يجلبوا إليها رقيقهم من الأروام والأعاجم للعمل فى الصنائع أو التجارة لحساب مالكيهم ، وكانت هذه العادة شائعة بين الناس ، ولكن حدث أن كتب إليه المغيرة بن شعبة أمير الكوفة ، يستأذنه فى إرسال

(١) الضمير هنا راجع إلى الزيت ، أى مالك عندنا غير الزيت .

غلام له ؛ ليعمل بالمدينة اسمه أبو لؤلؤة المجوسى ، وذكر أنه صاحب صناعات كثيرة فهو حداد ، نجار ، نقاش ، فأذن له بذلك .

وفرض المغيرة على غلامه جملا شهريًّا استكثره ، فشكاه إلى عمر ، وطلب إليه أن يخففه ، فقال عمر : ألم أخبر أنك صاحب صناعات هى : كيت وكيت ؟ ! . . فقال الغلام : بلى ! فقال : ما خراجك بكثير فى كنه عملك ! فانصرف الغلام ساخطا ! .

وبعد أيام مرّ أبو لؤلؤة بعمر فاستدعاه وقال : ألم أحدَّث أنك تقول : لو أشاء لصنعت رحًى تطحن بالريح ؟ .

فقال أبو لؤلؤة ساخطاً :

لأصنعن لك رحًى يتحدث بها الناس ! .

فلما ولى ، أقبل عمر على الرهط الذى كان معه وقال : أوعدنى العبد آنفاً ! ولكن لم يفطن أحد إلى ما فطن إليه ولم يعر هو نفسه الأمر اهتماماً ! .

وبعد ليال من ذلك كمن أبو لؤلؤة لعمر فى زاوية من زوايا المسجد قبيل صلاة الفجر ، وطعنه ثلاث طعنات بخنجر ذى نصلين كان معه ، ثم أخذ يطعن كل من حاول القبض عليه من المسلمين

حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة ، ثم جاء رجل من خلفه ، فلفه فى ردائه وقيد حركته ، فلما أحس أنه قد أخذ طعن نفسه ، فمات ! .

أما عمر فإنه حمل إلى بيته وهو إلى الموت أقرب منه إلى الحياة ، وكان أول شيء أهمَّه أن يعلمه حين رد إلى نفسه هو : من الذى قتله ؟ فلما أخبر أنه أبو لؤلؤة استراح ، وقال الحمد لله الذى لم يقتلنى أحد يخاصمنى بسجدتين أمام الله ! .

* * *

طلب جماعة من المسلمين إلى عمر بعد أن طعن أن يستخلف ، فقال : إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم) .

ثم اتخذ عمر خطة وسطاً ، فجعل الأمر من بعده لبقية النفر الذى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . وهم : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .

وأوصى من يقع عليـــه الاختيار — إن لم يكن

سعد بن أبى وقاص — أن يستشيره فإنه لم يعزله عن عجز أو خيانة ! .

ولم يفارق عمر حزمه حتى فى هذه الساعة ، ذلك أنه خشى أن ينشب خلاف بين النفر الذين حصر فيهم الخلافة ، فدعا أبا طلحة الأنصارى ، وقال له :

يا أبا طلحة ، كن فى خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى ، فقم على الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم ، ولا تتركهم يمضى اليوم الثالث حتى يؤمروا أحدهم . اللهم أنت خليفتى عليهم . وجاء فى بعض الروايات خول أبا طلحة قتلهم جميعاً إذا لم يتفقوا على أحدهم بعد ثلاثة أيام !.

هذا هو آخر تدبير من تدابيره الحازمة ، صدع به وهو بين الحياة والموت ، ولم يدرك الناس مبلغ ما فيه من الحكمة والصواب إلا بعد أن دهمتهم الفتنة إثر مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ! .

ومات عمر بعد ثلاثة أيام من جراحته ، فصلى عليه صهيب الرومى، ودفن إلى جانب أبى بكر على مقربة من مدفن النبي صلى الله عليه وسلم . وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة ، وكان له من العمر ثلاث وستون سنة ! .

عثمان بن عفّان

لو كان فى الإمكان الاقتصار فى ترجمة عثمان بن عفان على الصدر منها — أى منذ إسلامه حتى قبيل استخلافه — لما كانت هناك شخصية من الصحابة تضارعها فى تهافت الفكر عليها، وانطلاق القلم فى تدوين مآثرها، نقول ذلك لا لأن ختامها وهو وقت استخلافه كان فيه ما يغير الرأى فى عظم هذه الشخصية وجلالها، بل لاستفظاع ما كان هناك من ظلم غاشم، وعدوان آثم على حبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنتيه: رقية وأم كلثوم، وعلم هذه الأمة على الأدب الجم والحياء العظيم، والبذل فى سبيل الله من غير حد وبلا منّ أو تقاض على أى وجه من الوجوه!.

كان عثمان بن عفان ممن زين الله بهم الصحابة، وأكمل به مجموعتهم، كان خيراً كله، عظيما إلى أقصى حدود العظم، وحسبك شهادة فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم إثر وفاة السيدة أم كلثوم ابنته وزوج عثمان الثانية — «لو كان عندى غيرهما لزوجته منها»[1]، واستشارة أبى بكر إياه فى استخلاف عمر، واختياره

(١) إشارة إلى أنه كان زوج رقية ابنة الرسول كذلك.

بالذات ليكتب وصيته بذلك ، ومبايعة أهل الشورى له من غير خلاف بعد أن اختاره نقيبهم عبد الرحمن بن عوف لهذا المنصب الجليل ! .

* * *

أسلم عثمان بن عفان فى الفوج الأول من المسلمين ، وكان ممن هداهم الله إلى الإسلام على يد أبى بكر الصديق ، وعلى الرغم من توسطه بيت بنى أمية تعرض لأذى قريش وعدوانها مما اضطره إلى الهجرة إلى الحبشة مستصحباً معه زوجه رقية ، وكان أول المسلمين هجرة إليها ، ثم هاجر إلى المدينة كذلك حين أذن المسلمين بالهجرة إليها .

وكان فى مركز الصدارة دائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يلى عمر ، ويجىء هو وعلى بن طالب فى صف واحد ، يتقدم عليه حيناً بحسب سنه، ويسبقه على حيناً بسبب كفايته التى لا تضارعها كفاية فى العلم والحرب ! .

وتتميز سيرة عثمان فى الرسول الكريم بمكرمة كبرى وموقف عظيم ، فأما المكرمة الكبرى فهى سخاؤه بماله فى سبيل الله ، وسنذكر مثلين على ذلك أولها :

كان رجل يهودى بالمدينة يملك بئراً عذبة الماء تسمى رومة

ويغلى ثمن مائها على الصحابة ، فشكوا منه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « من يشترى رومة فيجعلها للسلمين ، يضرب بدلوه فى دلائهم ، وله بها مشرب فى الجنة ؟! » .

فأتى عثمان اليهودى يساومه فى شرائها فأبى أن يبيعها كلها ، فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم ، فجعله للمسلمين واتفق معه على أن تكون البئر يوماً له ويوماً لليهودى ، فكان المسلمون إذا جاء يوم عثمان يستقون ما يكفيهم من الماء يومين . فلما رأى اليهودى ذلك قال : أفسدت على ركيتى[1] ، فاشتر النصف الآخر ، فاشتراه عثمان بثمانية آلاف درهم ، وأطلقها كلها للمسلمين !.

أما المثل الثانى فقد كان عند غزوة تبوك ، وهى المسماة بغزوة العسرة ، وكانت فى السنة التاسعة من الهجرة وكان المسلمون فى ضيق شديد وعسرة بالغة . يريدون أن يجاهدوا فى سبيل الله ولكن تحول بينهم وبين رغبتهم قلة ما بأيديهم من الأموال ، وعجزهم عن شراء حمولة السفر من جمل أو فرس ، وفى هذا المقام يقول الله عزّ وجلّ فى كتابه الكريم :

« ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد

---

(١) الركية ، هى البئر..

ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون »(١)

وقد بادر كبار المسلمين ببذل أموالهم فى سبيل الله ، وكان عثمان من أيسرهم حالا ، فجهز هذا الجيش بتسعمائة بعير وخمسين فرساً !.

أما الموقف العظيم الذى ميزناه آنفاً على غيره فى سيرة عثمان فهو موقفه فى غزوة الحديبية ، وخلاصته أنه لما تحرج الموقف بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قريش حين أراد الطواف بالبيت ومنعوه ، اتجه رأيه الشريف إلى إرسال أحد وجهاء الصحابة ليشرح لهم وجهة نظره لهم ، ويقنعهم أنه إنما يريد الطواف بالبيت ولا يريد حرباً أو قتالا ، فعرض الأمر على عمر بن الخطاب ، فذكر أن ليس له من بنى عدى — رهطه بمكة — من يستطيع حمايته ، ذلك إلى أنه مشهور بغلظته على قريش ، ثم أشار بانتداب عثمان بن عفان لهذه المهمة فقبل الرسول الكريم مشورته ، ورشح عثمان لها فقبلها من غير تردد .

ثم أشيع بعد ذهاب عثمان إلى قريش أنهم قتلوه ، فدعا الرسول

---

(١) سورة التوبة آية ٩٢

صلى الله عليه وسلم الصحابة إلى بيعة الرضوان ، وكان شعارها الفتح أو الشهادة ، وهى البيعة التى يقول الله عز وجل فى شأنها : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما »(1) .

وبايع النبي صلى الله عليه وسلم عن عثمان فوضع يده اليمنى على يده اليسرى ، وقال : « اللهم إن هـذه عن عثمان فإنه فى حاجتك وحاجة رسولك »(2)



(1) سورة الفتح الآيتان : ١٨ و١٩ .

(2) نتيجة هذه الواقعة معروفة ، فقد ظهر أن عثمان حي يرزق وتراجعت قريش وعقدت معاهدة الحديبية .

ثالث الخلفاء الراشدين

تركنا القراء فى آخر ترجمة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب عند وصيته بشأن من يلى الأمر من بعده، وهى تتلخص فى حصر الموضوع فى بقية النفر الذين مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، وهم : عثمان بن عفان ، وعلى ابن أبى طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وطليحة بن عبيد الله ، وقد اجتمع هؤلاء النفر بعد وفاة عمر ، وأنابوا عبد الرحمن بن عوف فى اختيار من يراه الأصلح من بينهم ، فاختار عثمان بن عفان وبايعه بالخلافة وبايعه الآخرون إثر ذلك ! .

قال عبد الله بن مسعود حين بويع عثمان بالخلافة : « بايعنا خيرنا ولم نأل »[1] .

وقال على بن أبى طالب : « كان عثمان أوصلنا للرحم ، وكان من الذين آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » .

* * *

مضت السنون الأولى عن خلافة عثمان ، والأمور تجرى

---

(١) ولم نأل : أى لم نقصر فى اختيار الأصلح .

فى سننها المستقيم ، والفتوحات الإسلامية تنتشر وتتلاحق فى كل ناحية من النواحى ، والأمـــوال تتدفق على المدينة ، والناس فى خير عميم وعز مقيم .

قال ابن سيرين : كثر المال فى زمن عثمان حتى بيعت جارية بوزنها (١) ، وفرس بمائة ألف درهم ، ونخلة بألف درهم ! . .

وقال الحسن البصرى : شهدت منادياً ينادى (أى فى زمن عثمان) :

يا أيها الناس اغدوا على أعطياتكم فيغدون ، ويأخذونها وافرة . يا أيها الناس ، اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافية . حتى والله سمعته أذناى يقول : اغدوا على كسواتكم فيأخذون الحلل ، واغدوا على السمن والعسل ، أرزاق دارّة وخير كثير، وذات بين حسن ، ما على الأرض مؤمن إلا يوده ، وينصره ويألفـــه » .

هذا وصف دقيق لعهد عثمان على لسان عرف بالصدق والتحنث الشديد ، وكان من الممكن أن تدوم هذه الحال ، وتزداد طيباً ونفعاً ، لولا أن داخل الفساد بعض النفوس فأبطرها ، وأغراها بهذا الخليفة السمح الكريم .

(١) أى دراهم .

ومن الواجب تقريره أن الناقمين على عثمان كانوا من أهل الأمصار وجلهم إن يكن كلهم من حديثى الإسلام ، ولم يكن بينهم أحد من كبار الصحابة إنما كانوا شراذم من شذاذ القبائل وجفاة الأعراب ، مشت بينهم الرسل وتلاقت أهواؤهم على الفتنة فاتفقوا على التجمع بالمدينة شراذم مسلحة أبرزها من أهل الكوفة والبصرة ومصر ، وقد عسكروا خارج المدينة ، وطلبوا من الخليفة أن يستقيل محتجين بأنه خالف سنة الشيخين أبى بكر وعمر ، وأساء السيرة فى الحكم وغلب الهوى على العقل والحكمة ! .

وكان أكثر ما يأخذونه عليه إيثاره ذوى قرابته بمناصب الدولة على فساد فيهم ، وبعد عن الاستقامة عرف عن بعضهم ، وكان من الممكن تلافى هذه المآخذ ، فقد كان الخليفة يستمع إلى النصيحة ، ويعمل بها إذا صدرت عن إخلاص ؛ ولم يكن القصد منها العنت والإحراج ، ولكن رؤساء الفتنة لم يكن الإصلاح رائدهم ، بل كانوا قد بيتوا أمراً واعتزموا تنفيذه ! .

وقد حاصر المارقون الخليفة فى داره ، ومنعوه من الصلاة فى المسجد ، وحرموه من الماء العذب ، وهو الذى أحله بماله للمسلمين كما ذكرنا ذلك آنفا ، ثم تهددوا كبار الصحابة مثل : على والزبير ، وطلحة بالشر إذا نصروه ؛ فأرسل كل واحد منهم

ابنه أو قريبه ليلازم الخليفة فى داره ويمنعه من الأذى ، ولكن عثمان أبى أن يستل أحد سيفه للدفاع عنه توقياً للفتنة ، ومنعاً لاستفاضة الشر !(1)

قال أبو هريرة : إنى لمحصور مع عثمان رضى الله عنه فى الدار فرمى رجل منا ، فقلت يا أمير المؤمنين ، الآن طاب الضِّراب ، قتلوا منا رجلا ! فقال :

عزمت عليك يا أبا هريرة إلا رميت سيفك . فإنما تراد نفسى ، وسأقى المؤمنين بنفسى ! .

قال أبو هريرة : فرميت سيفى لا أدرى أين هو حتى الساعة!.

وهكذا آثر الخليفة أن يموت شهيداً على أن يقسم جماعة المسلمين ، ويفتت وحدتهم ، ولو لم يكن له من المآثر إلا هذه المأثرة لكفاه بها فخراً وتمجيداً !

وقد طالت مدة الحصار حتى جاوزت الشهرين ، ثم أرجف بعض المرجفين بأن معاوية بن أبى سفيان والى الشام أرسل جيشاً لنصرة الخليفة فكان ذلك حافزاً للمارقين على التعجيل بقتله الخليفة ، فتسوروا الدار ، وقتلوه وهو يتلو القرآن الكريم .

(1) الاستيعاب لابن عبد البر ج ٣ ص ١٠٤٦ طبعة مكتبة نهضة مصر.

قال أبو جعفر الأنصارى[1] : لما قتل عثمان خرجت أشتد حتى دخلت المسجد فإذا رجل جالس عليه عمامة سوداء . فقال : ويحك ! ما وراءك ؟ قلت : قد والله فرغ من الرجل ! فقال : تبًّا لكم آخر الدهر ، فنظرت فإذا هو على بن أبى طالب !

قتل عثمان بن عفان وهو فوق الثمانين من عمره ، وكانت خلافته اثنتى عشرة سنة إلا ثمانية أيام .



(١) الاستيعاب لابن عبد البر ج ثالث ص ١٠٤٤ طبعة مكتبة نهضة مصر.

علىّ بن أبي طالب

على كثرة ما قرأت عن علي بن أبي طالب للأقدمين والمعاصرين لم أجد وصفاً أصدق في تصويره من قول أحد معاصريه يخاطب صديقاً له : أتدرى ما مثل علي في هذه الأمة ؟ إن مثله مثل عيسى بن مريم ، أحبه قوم حتى هلكوا في حبه ، وأبغضه قوم حتى هلكوا في بغضه ! . .

وقد كانت البادرة الفكرية التي ومضت في ذهني إثر اطلاعي على هذا التصوير لأول مرة هي توجيه العذر لمن أفرط في حب علي . فقد كان أهل ذلك وزيادة ، أما من أبغضه فقد عجزت حيلتي عن التماس شبهة من رأى لأعذاره ، إذ كانت سوابقه في نصرة الإسلام ، وتبريزه الشامخ في مذاهب الفكر ومناهج العلم كل ذلك كفيل بحمايته من البغضاء مهما كانت ضئيلة ، ولكن فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور[1]

قال يحيي بن معين[2] : من قال أبو بكر وعمر وعثمان وعلى

---

(١) اقتباس من الآية الكريمة رقم ٤٦ من سورة الحج .

(٢) يحيي بن معين من كبار التابعين .

رضى الله عنهم ، وعرف لعلى سابقته وفضله ، فهو صاحب سنة ، ومن قال أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وعرف لعثمان سابقته ، فهو صاحب سنة . فذكر له أحد جلسائه هؤلاء الذين يقولون : أبو بكر وعمر وعثمان ويسكتون ، فتكلم فيهم بكلام غليظ ! .

وليس هناك شك فى أن كل من يدرس سيرة على بن أبى طالب بقلب سليم يجد نفسه من شيعته على الرغم منه ، وليس من الحتم أن يغالى فى التشيع له حتى المروق فإن الإسلام يعصمه من ذلك . وعلىّ نفسه يقول — وهو خليفة — : « من فضلنى على أبى بكر جلدته » وهو بهذا التقرير الخطير يقطع السبيل على كل من يركب هواه ، ويفترى عليه الكذب والبهتان ! .

٭ ٭ ٭

أسلم على وهو صبى فى نحو العاشرة من عمره ، وكان منذ طفولته فى كفالة النبى صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن الرسول الكريم أراد التخفيف عن عمه أبى طالب نظراً لكثرة عياله ، وما يتكبده من مغارم الرياسة فى بنى هاشم ، فاقترح عليه أن يضم علياً إليه فقبل . وعلى هذا نشأ على فى رعايته الشريفة ، وتشرب منذ الصغر أدبه ومناهجه فى الحياة ! .

وبدَهى — والشأن هكذا أن يكون علىّ أول الناس استجابة

لدعوة الرسول . ولكن حداثة سنه حالت بينه وبين المشاركة في نشر الدعوة في أعوامها الأولى . ولكنه عوض ذلك ببداية ضخمة لولم يتفق له غيرها في حياته كلها لكفته مجداً وفخاراً !..

* * *

لما أعيت قريشاً الحيل في محاربة الدعوة الإسلامية وعلموا بتحالفه مع الأنصار ، أدركوا مبلغ ماهم معرضون له من الخطر ، إذ كانوا على علم ببراعة الأوس والخزرج في القتال ، وعراقتهم في ممارسة الحروب ، فاجتمعوا بدار الندوة ، وقرروا أن لا مخرج لهم من هذا المأزق إلا بقتل محمد بن عبد الله ، ولكي يعجزوا بني هاشم عن المطالبة بدمه اتفقوا على أن ينتخب كل بطن من بطونهم فتى شديد البأس ، على أن يتولى هؤلاء الفتيان جميعاً قتله حتى يتوزع دمه على قريش كلها ، ويجد بنو هاشم أن لا قبل لهم بحرب أهل مكة جميعاً[1] !.

وفي الليلة التي عينت لتنفيذ هذه المؤامرة ، انتهى أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبر عليًّا بها ، وطلب إليه أن يرتدي لباسه ، وينام في فراشه ، ليوهم المتآمرين أنه — أي

---

(١) تقدم ذكر هذه الواقعة في ترجمة أبي بكر ولكن السياق اقتضى إعادتها هنا .

النبي الكريم — فى داره وفى فراشه كعادته ، ثم انصرف مهاجراً من مكة إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق ، على ماهو معروف ! .

وقد قبل على هذه المهمة الفدائية بنفس مطمئنة . وجنان ثبت ، وكان يحس فى ذلك الوقت أنه أسعد الناس طراً بأن يقدم نفسه فداء لنبيه وحبيبه العظيم ! .

وظل المتآمرون بين آونة وأخرى يتطلعون من خلل الباب فيرون عليًّا نائماً ، وهم يحسبونه محمداً ، فيطمئنون إلى موقفهم ، وكانوا قد رأوا من الحكمة أن يؤجلوا فعلتهم إلى الهزيع الأخير من الليل ، وبينما هم على هذه الحال من التربص والانتظار إذا بأحد الناس يفاجئهم بأن محمداً قد بارح داره وهم غافلون ! .

واقتحم المتآمرون الدار وهجموا على الفراش فإذا بهم يجدون فيه على بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله ، فيسقط فى أيديهم ، ويمنون بأشنع خيبة لاقوها فى حياتهم ، ولا يجدون منفذاً لتصريف غيظهم غير أن يشتموا عليًّا ويضربوه ، ويحبسوه ساعات ثم يطلقوه ! .

حامل اللواء :

لما هاجر على بن أبي طالب إلى المدينة كان قد جاوز العشرين

من عمره فاستقبل المعارك التى خاضها الرسول العظيم مع قريش والعرب جميعاً واليهود الخبثاء بعزيمة الإيمان وقوة الجنان، وكان الله عز وجل قد أنعم عليه بقوة جسدية خارقة، وشجاعة نفسية فائقة، ولسنا نجد فى وصفه أصدق من الوصف الذى أورده ابن عبد البر فى كتابه «الاستيعاب»[1] قال:

«كان ربعة من الرجال إلى القصر ما هو، أدعج العينين حسن الوجه كأنه القمر ليلة البدر حسناً، ضخم البطن، عريض المنكبين، ششن[2] الكفين كأن عنقه إبريق فضة، أصلع ليس فى رأسه شعر إلا من خلفه، كبير اللحية، لمنكبه مشاش[3] كمشاش السبع الضارى، لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجاً، إذا مشى تكفأ، وإذا أمسك بذراع أحد أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس، وهو إلى السمن ما هو، شديد الساعد واليد، وإذا مشى للحرب هرول، ثبت الجنان، قوى شجاع، منصور على من لاقاه!».

---

(١) الاستيعاب جزء ثالث ص ١١٢٣ طبعة مكتبة نهضة مصر.
(٢) ششن الكفين: أى أن كفيه ضخمتان.
(٣) المشاش: هو رأس العظم.

وكان على حامل لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معظم غزواته ، وقد برزت موهبته الحربية لأول مرة فى غزوة بدر حين بارز شيبة بن ربيعة وقتله ، وفى فتح خيبر حين سلمه الرسول اللواء بعد أن قال : « لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ،ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار يفتح الله على يديه ، وقد تحققت الفراسة النبوية من أول يوم ، ففتح الله الحصن على المسلمين .

ولم يتخلف على عن غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم إلا غزوة تبوك ، فقد استخلفه فيها على أهله ، ولما أبدى على رغبته فى الخروج معه إلى الجهاد ، طيب خاطره ، وقال له : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى » .

العالم القاضى الفقيه :

أجمع الصحابة والتابعون على أن على بن أبى طالب كان رأساً فى الفقه والفتوى والقضاء ، وأنهم كانوا يلجأون إليه فى حل المعضلات وبيان المشكلات ، وكان عمر بن الخطاب يقول : على أقضانا ويتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن ، ويقول : لولا على لهلك عمر ! .

وقال عبدالله بن عباس : لقد أعطى على بن أبي طالب تسعة أعشار العلم ، وأيم الله لقد شاركـكم فى العشر العاشر ! .

وجاء رجل إلى عمر فسأله : من أين أعتمر ؟ ! فقال : إئت علياً فسله ! .

وقالت السيدة عائشة : من أفتاكم بصوم عاشوراء ؟ قالوا : على ! قالت : أما إنه لأعلم الناس بالسنة .

وقال عبد الله بن مسعود : أعلم أهل المدينة بالفرائض على بن أبي طالب .

وقال على بن أبي طالب : سلونى ! فو الله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتـكم ، وسلونى عن كـتاب الله ، فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل أم فى جبل ؟ ! .

وقال سعيد بن عمـــرو بن العاص لعبد الله بن عياش ابن أبي ربيعة : يا عم ، لو كان صفو الناس إلى على ! فقال : يابن أخى ، إن علياً عليه السلام ، كان له ما شئت من ضرس قاطع فى العلم ، وكان له البسطة فى العشيرة ، والقدم فى الإسلام ، والصهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفقه فى المسألة ، والنجدة فى الحرب ، والجود فى الماعون (١) .

---

(١) جاء فى غريب القرآن لأبى بكر السجستانى أن الماعون : ما ينتفع به المسلم من أخيه كالعارية والإغاثة ونحو ذلك ، وقيل : إنه الزكاة والطاعة .

أمير المؤمنين

لما قتل عثمان بن عفان بايع كبار الصحابة علياً بالخلافة ، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة من سنة خمس وثلاثين هجرية ، وكان الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله فى طليعة المبايعين ، ثم بدا لهما فيما بعد أن يتحللا من هذه البيعة ، وخرجا ومعهما السيدة عائشة أم المؤمنين من المدينة إلى البصرة يحرضان الناس على علىّ ويتهمانه بالقعود عن نصرة عثمان بن عفان ، والتف حولهما حشد كبير من الناس ! .

واضطر على إلى ملاحقتهما بجيشه ، والتقى الجمعان فى معركة مشهورة سميت معركة الجمل (١) ، وكان النصر فيها لعلى ، فلما انتهت استضاف السيدة عائشة وأرسلها إلى المدينة معززة مكرمة وفى صحبتها بعض كرائم السيدات إيناساً لها وترفيهاً عنها ! .

أما طلحة والزبير فقد قتلا بسيوف ليست لعلى ، وإنما بكيد دبره بعض المتطرفين وخبر ذلك مذكور بتفصيل فى كتب التاريخ !.

وكان معاوية بن أبى سفيان أمير الشام قد أبى بيعة علىّ

(١) سميت بذلك لأنها دارت حول الجمل الذى كانت تركبه السيدة عائشة .

واتهمه بدم عثمان ، فسار إليه علىّ بجيشه ، والتقى الجيشان فى معركة صِفّين ، وكانت الغلبة فيها لعلى ، ولكنها لم تكن معركة فاصلة !.

ولما رأى معاوية ضعف موقفه الحربى ، أعمل الحيلة ، فأمر جنوده أثناء معركة من المعارك برفع المصاحف على السيوف ، والمناداة بتحكيم كتاب الله فى الفتنة القائمة ، وقد فطن على إلى هذه المكيدة فحذر جيشه من التورط فيها ، ولكنهم خالفوه إذ كانوا قد ملوا القتال ، وركنوا إلى الدعة والسلامة ، ولم يسعه إلا موافقتهم على كره وبصر بالنتائج .

وانتهى الأمر باختيار أبى موسى الأشعرى (١) حكما من قبل علىّ وعمرو بن العاص من قبل معاوية ، واجتمع الحكمان ولم يكن بينهما تكافؤ ، فقد كان أبو موسى رجلا لا دُرْبة له على السياسة . وكان عمرو بن العاص داهية فيها . ولذلك نصب عمرو لصاحبه شركا ، فما أسرع أن وقع فيه !.

اقترح عمرو على أبى موسى أن يخلع كل منهما صاحبه من الخلافة ، ويترك الأمر لجماعة المسلمين ، لتختار من يصلح لها أمرها ، ويرد عليها جماعتها ، فخدع أبو موسى بظاهر هذا الاقتراح ، وعده حلاً صائباً ، ولم يداخله شك فى صدق نية

---

(١) أبو موسى الأشعرى من كبار الصحابة وعلمائهم .

عمرو . ومن أجل ذلك وافق عليه وأعلن خلع على بن أبى طالب من الخلافة .

ولما فرغ أبو موسى من قوله وأشهد الناس عليه ، وقف عمرو بنُ العاص ، وأعلن تثبيت معاوية فى الخلافة ، وخلع على منها ! .

وهكذا خسر علىّ هذه المعركة السياسية ، وحاول جاهدا أن يسترد قوته الحربية فلم يستطع إلى ذلك سبيلا .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من السوء ؛ بل انضاف إليه ما هو أسوأ : ذلك أن فريقاً كبيراً من جماعة على ساءهم أن يقبل التحكيم فاتهموه فى دينه، وقالوا: حكّمت الرجال فى دين الله ، والله يقول : « إنِ الحكمُ إلاّ لِلهِ »[1] ثم خرجوا عليه - وبذلك سُمُّوا الخوارج - وراحوا يعيثون فى الأرض فساداً ، ويغيرون على المدن والقرى ، التى تقع فى رقعة البلاد الموالية لعلى ، ويفتكون بالنساء والأطفال والشيوخ ، فخرج إليهم على ، وحاول ردهم بالحسنى إلى سواء السبيل ، فأبوا إلا القتال ، فتلاقى معهم فى موقعة « النهروان »[2] ، فقتلهم ، واستأصل

(١) وردت هذه الجملة فى أكثر من آية منها : « إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه » ، سورة يوسف رقم ٤٠ .

(٢) النهروان اسم قرى بين واسط وبغداد من العراق .

جمهورهم ، وكان ذلك فى سنة ثمان وثلاثين من الهجرة . ثم استقر فى الكوفة ، وأخذ يحاول حث أهل العراق على استئناف الجهاد فلم يستجيبوا له ...

غدر واغتيال :

حزّ فى نفوس الخوارج ما لاقوه من هزيمة منكرة فى واقعة النهروان ، وما أصيبوا به من خسائر فادحة فى الأرواح ، ولم يجدوا منفذاً للأخذ بثأرهم غير قتل على غِيلَةً وغدْراً، فانتدبوا لذلك عبدالرحمن بن مُلْجَم . وهو رجل متعصب فاتك ، فكمن له فى المسجد ، وانتظر وقت خروجه لصلاة الفجر ، وطعنه بالسيف فى رأسه طعنة قاتلة ، وهو يقول : الحكم لله يا على ، لا لك ولا لأصحابك ! .

فقال على وقد أحس طعم الموت : فزتُ ورب الكعبة ! (يقصد أنه فاز بالشهادة) ، وشد الناس على القاتل من كل جانب حتى أخذوه . فقال على :

احبسوه ، فإن مت فاقتلوه ، ولا تمثلوا به ، وإن لم أمت فالأمر إلى فى العفو أو القصاص !

وكان العدوان على عليّ فى فجر يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة

خلت من رمضان سنة أربعين من الهجرة ، ومكث يجود بنفسه يومى الجمعة والسبت ؛ ثم فاضت روحه ليلة الأحد ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وقد مكثت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ونصف شهر ، وقد فجع به المسلمون ، ولم يعرفوا قدره ولا مبلغ خسارتهم بفقده إلا بعد أن أخلى مكانه ، وذهب إلى ربه راضياً مرضيًّا ! .

قال اسماعيل بن محمد الحميرى يرثى عليا بن أبى طالب :

سائل قريشاً به إن كنت ذا عَمَه ... من كان أثبتها فى الدين أوتادا

من كان أقدم إسلاماً وأكثرَها ... علماً وأطهرَها أهلا وأولادا

من وحّدَ الله إذ كانت مُكَذِّبَةً ... تدعو مع الله أوثاناً وأندادا

من كان يقدُم فى الهيجاء إن نكلوا ... عنها وإن ينجلوا فى أزمة جادا

من كان أعدَلها حكماً وأبسطها ... علماً وأصدقها وعداً وإيعادا

إن يصدقوك فلن يعدُوا أبا حسن ... إن أنت لم تلق للأبرار حسّادا

إن أنت لم تلق أقواماً ذوى صَلفٍ ... وذا عِنادٍ لحق الله جُحّادا



معاوية بن أبي سفيان

كان أدباء الصدر الأول من الإسلام يقولون : دهاة العرب ثلاثة : معاوية بن أبي سفيان . وعمرو ابن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كان هؤلاء الدهاة الثلاثة من كبار الصحابة ؛ وأهل الرأى والبصر بالأمور فيهم ؛ وفى مكان الصدارة من القيادة والتوجيه بينهم ، استووا ثلاثتهم فى الإمارة وبَرَّزَ عليهم معاوية بالخلافة ، وبفضيلة أخرى قلَّ أن تجتمع مع خلافة أو ملك، ألا وهى الحلم الواسع الذى لاحَدَّ له ولا نهاية . . . قال معاوية يصف نفسه فى هذا المقام : لو أن بيني وبين قريش شعرة ما قطعت !.. فلما قيل له : وكيف ذاك ! قال : إذا شدُّوها أرْخيتها ، وإذا أرخوها شددتها ! ولسنا نجد فى صفته خيراً مما وصف هو به نفسه .

نشأ معاوية فى بيت رياسة ، فقد كان والده أبو سفيان ابن حرب رئيسَ قريش وزعيمها قبل إسلامها ، وأسلم معاوية ووالده وأخوه يزيد عام الفتح ، وكانوا من المؤلفة قلوبهم ، وقد أجزل لهم النبي صلى الله عليه وسلم العطاء من مغانم حنين حتى أطلق لسان أبي سفيان بالشكر والثناء ! .

وكان معاوية أثناء حياة النبي صلى الله عليه وسلم من كُـتَّاب الوحى ، فلما سُـيِّرت الجيوش نحو الشام فى خلافة أبى بكر كان أحد الجنود الغزاة فى الجيش الذى كان يرأسه أخوه يزيد ابن أبى سفيان ، وقد انتدبه أخوه لقيادة بعض الجيوش ، ففتح طائفة من البلاد ومنها مدينة قيسارية .

ولما مات أبو عبيدة بن الجراح أمير الشام على عهد عمر أمَّـرَ عمر يزيد بن أبى سفيان عليها ، فمات وهو واليها ، ولما حضرته الوفاة عهد إلى أخيه معاوية بشئون الولاية فأقرّ عمر هذا العهد ، وعين معاوية أميراً على الشام ، فظلَّ فى منصبه هذا طوَال المدة الباقية من خلافة عمر ، ومدةَ خلافة عثمان كلها وهى حوالى اثنى عشر عاما .

وكان عمر بن الخطاب - على فرط حرصه وحذره - يقدِّر معاوية حق قدره ، ويتجاوز له عن بعض الأمور التى لم يكن يتجاوز عن أصغر منها لغيره من الولاة ، وله معه مواقف تؤكد ذلك كل التأكيد !.

زار عمر الشام ومعاوية أمير عليها ، فاستقبله فى موكب عظيم ، فلم يسع عمر حين بدت طلائع الموكب إلا أن يقول لمن معه : هذا كسرى العرب ! .

فلما دنا منه معاوية قال له : أنت صاحب هذا الموكب؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! قال : مع ما يبلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك؟ قال : مع ما يبلغك من ذلك ! قال : ولم تفعل هذا؟ فقال معاوية :

نحن بأرضٍ جواسيس العدو بها كثيرة ، فيجب أن نُظهر من عز السلطانً ما نُرْهبهم به : فإن أمرتنى فعلت ، وإن نهيتنى انتهيت !.

فقال عمر : ما أسألك عن شيء إلا تركتنى فى مثل رواجب الضِّرس[1] ! إن كان ما قلت حقًّا إنه لرأى أريب ، وإن كان باطلا إنه لَخُدْعة أديب !.

قال معاوية : فمرنى يا أمير المؤمنين !.

قال عمر : لا آمرك ولا أنهاك !.

فقال عمرو بن العاص وكان حاضر هذا الحديث : ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه !.

فقال عمر : لحسن مصادره وموارده جشَّمناه ما جشمناه[2]!

ويظهر من هذه المحاورة أن عمر قد استسلم لمعاوية على غير

---

(١) كناية عن الحيرة .

(٢) أى كلفناه ما كلفناه .

يقين بسلامة تصرفاته من وجهة نظره هو ، ولكنه آثر النزول على رأى القائل : صاحب البيت أدرى بالذى فيه ، وليس فى تاريخ عمر أثناء خلافته موقف يشبه هذا الموقف مع الأمراء . . لقد كان عنيفاً معهم ، شديد الحرص على أن يمثلوا وجهة نظره هو لا وجهة نظرهم هم ، وذلك مما يدل على علو رأيه فى معاوية وعظم تقديره إياه . وقد يكون فى إيراد الواقعة التالية ما يؤكد المعنى الذى ذهبنا إليه :

ذُمَّ معاوية يوما عند عمر ، فقال :

دعونا من ذمِّ فتى قريش ، من يَضحك فى الغضب ، ولا يُنال ما عنده إلا على الرضا ، ولا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه ! .

إن الصورة التى رسم بها عمر معاوية فى هذه الأوصاف معبرة جداً ، محدِّدة كل التحديد شخصية الرجل السياسى على النحو الذى ترسم عليه هذه الأيام ، بل إن أعظم الناس خيالا وأوسعهم إدراكا فى وقتنا هذا لو أراد أن يصور سياسيًّا ماهراً لما تهيأ له من دقة التصوير وتجسيم الرسم ما تهيَّأ لعمر من ذلك فى سهولة وحسن إيراد ! .

لما حدثت الفتنة الكبرى إثر مقتل عثمان، رأى معاوية أنه أولى الناس مطالبة بدمه إذ كان ابنَ عمه وواليا على الشام من قبله. ومن أجل ذلك امتنع عن مبايعة على بن أبى طالب واعتصم بالشام.

وكان معاوية قد تمكن من الشام لسببين مهمين هما: أنه كان قد أمضى ستة عشر عاماً أميراً عليها. وأنه كان والياً محسناً إلى أهلها، يسوسهم بالحكمة، ويجزل لهم العطاء، ومن أجل ذلك التفوا حوله وأطاعوه طاعة عمياء، فلما حدث العِراك بينه وبين علىّ بن أبى طالب كان أهل الشام وراءه كالبنيان المرصوص، لا جدل ولا خلاف، ولا مراوغة ولا اعتراض، وكان الأمر عند علىّ على نقيض ذلك تماماً: كان أهل العراق يكثرون من جداله فى معظم ما يتخذه من التدابير، ويخرجون على أحكامه ثم عصوه أخيراً جِهاراً صُراحا؟.

قال معاوية: أعنت على علىّ بثلاث: كان رجلا ربما أظهر سرَّه، وكنت كتوماً لسرى، وكان فى أخبث جند وأشده خلافاً عليه، وكنت فى أطوع جند وأقله خلافاً علىّ. ولما ظفر بأصحاب الجمل لم أشك أن بعض جنده سيعد ذلك وهْناً فى دينه،

ولو ظفروا به كان وهناً فى شوكة . ومع ذلك فكنت أحبَّ إلى قريش منه لأنى كنت أعطيهم وكان يمنعهم ! .

وقد أنصف معاوية عليًّا بهذا الحكم كلَّ الإنصاف ، ولم يبال فى تقريره الحقيقة فإن فى بعض ما ساقه ما يمسه من وجهة نظر المستمسكين بأسباب الكمال الروحى ، ومنحى الأخلاق الدينية ، ذلك أنه كان يصدر فى حكمه عن رجل السياسة بمفهومها المطلق ! .

أمير المؤمنين معاوية

أوردنا فى ترجمة علىٍّ بن أبى طالب خلاصة موجزة عن حروبه مع معاوية وإفضاء الأمر إلى قتله على يد رجل كان من جنده .

ولما قتل علىّ بايع أصحابُه الحسنَ ابنه وكان سيداً كبير النفس عظيم الهمة تسموا روحانيته على مفاتن الدنيا وأبهة الملك . ويقول المؤرخون إنه كان أحب إلى جنده من أبيه ، ولكنه أعمل رأيه فى الموقف بصفاء نفس ونور بصيرة فرأى أنه إذا استرسل فى حرب معاوية سيعرِّض نفوس المسلمين للهلاك ، وكلمتهم إلى مزيد من الشقاق فراسل معاوية يفاوضه فى الصلح والتنازل عن الخلافة له ،على شرط أن يكون له الأمر من بعده ، فرحب معاوية

بهذا الاقتراح وتم الأمر على هـــذا الأساس ؛ ولـكن المنية عاجلت الحسن بن على فمات فى حياة معاوية ، وعلى ذلك استقر له أمر الخلافة سنة إحدى وأربعين هجرية ، ومكث خليفة قرابة عشرين عاما .

* * *

نحب أن نختم هذه الترجمة بالحـكاية الآتية :

وفد المِسـور بن مَخرَمة[1] على معاوية بعد أن خلا له وجه الخلافة فقال له : ما فعل طعنك على الأئمة يا مسور ؟ قال مسور: فقلت : دعنا من هذا وأحسِـن فيما قَـدِمنا له ! .

قال : والله لِتكلمن بذات نفسك ! قال : فلم أدع شيئاً أعيبه عليه إلا بيَّـنته له! فقال : لا أتبرأ من الذنوب ، فما لك يامسور ذنوب تخاف أن تهلك إن لم يغفرها الله لك ؟ فقلت : بلى ! قال : فما جعلك أحق أن ترجو المغفرة منى ! . فوالله لما ألى من الإصلاح بين الناس ، وإقامة الحدود ، والجهاد فى سبيل الله ، والأمور العظام التى لست أحصيها ولا تحصيها ، أكثرُ مما تلى .

---

(١) المسور بن مخرمة القرشى الزهرى من أفاضل الصحابة وعلمائهم وكان شديدا على أهل الفتنة مستقيما صالحا ،حتى أن الخوارج أنفسهم كانوا يعظمون

وإنى لعلى دين يقبل الله فيه الحسنات ، ويعفو عن السيئات . والله لعلى ذلك ما كنت لا أخيِّر بين الله وبين ماسواه إلا اخترت الله على ما سواه ! .

قال مسور : ففكرت حين قال ما قال ، فعرفت أنه خصمنى[1] عمرو بن العاص .

كان عمرو بن العاص فى الجاهلية أحد رجال قريش المعدودين وواحداً من أبنائها المبرّزين ، وقد انتدبته لمهمة سياسية بالغة الخطر عندها لعظم تعويلها عليه فى الملمات التى تحتاج إلى كياسة ودهاء . فأما هذه المهمة فهى تحريض النجاشى ملك الحبشة على طرد مهاجرى المسلمين من بلاده بعد أن استقبلهم فيها على الرحب والسعة !

وسافر عمرو ومعه رجل آخر من قريش إلى الحبشة ، وقابلا النجاشى ولجأ إلى الحيلة والكيد المسلمين عنده ليظفرا منه بما أرادا ، ولكنه كان رجلا عظيم الخلق كبير العقل فردَّ كيدهما فى نحرهما وأرجعهما خائبين .

وكان من بين ما لجأ إليه من أسباب الكيد للمسلمين محاولة

---

(١) خصمنى : غلبنى فى الخصومة .

الوقيعة بين الإسلام والمسيحية ، وكان النجاشي مسيحيًّا، فما كان منه إلا أن استدعى بعض كبراء المهاجرين ، وناقشهم فى أصول الدين الإسلامى ، وقارنها بأصول المسيحية الصحيحة فلم ير فارقاً بينهما ، بل تذكر بعض المصادر الإسلامية أنه أسلم حقًّا .

ويقول عمرو بن العاص نفسه : إن النجاشي عاتبه على الاستمساك بالوثنية ، وقال له :

كيف يعزب عنك أمرُ ابن عمك ، فو الله إنه لرسول الله حقًّا ! .

فقال عمرو : أنت تقول ذلك ! .

فقال النجاشي : إى والله ، فأطعنى ! .

ويعلق عمرو على هذا الحديث بقوله : فوالله لقد وقع أمر الإسلام فى نفسى منذ ذلك اليوم !

ويعلل عمرو سبب تأخره عن الإسلام بما كان لطواغيت قريش من السيطرة على نفوس شبابها ، وكان أبوه العاصى ابن وائل منهم . فلما ذهبوا [1] وصار الأمر إلينا ، نظرنا وتدبرنا فإذا هو حق بين ، فوقع فى قلبي الإسلام .

---

(١) كان إسلام عمرو بعد وفاة أبيه .

وصحَّت عزيمة عمرو على الإسلام فى السنة الثامنة للهجرة ، فخرج من مكة مهاجراً . والتقى فى طريقه إلى المدينة بخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة ، وقد خرجا مهاجرين يطلبان الإسلام كذلك فصحبهما ، ووصلا جميعاً إلى المدينة ، ونزلوا بضاحيتها ليتهيأوا لمقابلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وشاع خبر وصولهم مسلمين ، فسر لذلك الرسول الكريم سروراً بالغاً ، وقال :

« قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » .

قال عمرو بن العاص يروى قصة إسلامه : لما بايع خالد ابن الوليد ، وعثمان بن طلحة النبي صلى الله عليه وسلم ، تقدمت فما هو والله إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفى حياء منه ، فبايعته على أن يغفر الله لى ما تقدم من ذنبى ، ولم يحضُرنى ما تأخر !.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الإسلام يَجُبُّ(١) ما كان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها » .

قال عمرو : فوالله ما عَدَل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من الصحابة فى أمر حرب منذ أسلمنا .

---

(١) يجب : يقطع .

ولقد كنا عند أبي بكر بهذه المنزلة . ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة ، وكان عمر على خالد كالعاتب .

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص رئيساً على الجند فى غزوة ذات السلاسل [1] ، ثم أمده بطائفة أخرى فيها أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح . ثم ولاه على عمان فظل أميراً عليها حتى لحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى .

ولما استخلف أبو بكر عينه قائداً لأحد الجيوش الكبرى ، ووجهه نحو فلسطين ففتح كثيراً من مدنها ، ثم عينه عمر ابن الخطاب والياً على فلسطين والأردن .

وكان عمر بن الخطاب عظيم القدر له جداً ، شديد الإعجاب بعقله وذكائه ، ويؤثر عنه أنه رأى مرة رجلا يتلجلج فى حديثه، ويشرد فى أفكاره ، فقال :

خالقُ هذا وخالقُ عمرو بن العاص واحد !

وانتدب عمر بن الخطاب عمرو بن العاص لفتح مصر ففتحها الله عليه ، وعينه أميراً عليها ، فظل كذلك حتى وفاة عمر وبضع سنين من خلافة عثمان ، ثم عزل عنها ، فاستوطن فلسطين ، وكان

---

(١) كانت غزوة ذات السلاسل فى السنة الثامنة من الهجرة .

ينزل إلى المدينة أحياناً ، ولا يفوته أن يعلن الخليفة برأيه فيما لا يروقه من التدابير !.

ولما قتل عثمان ونشبت الفتنة بين علي ومعاوية ، راسل معاوية عمرًا فلحق به، وكان وزيره ومشيره ، وقد أسلفنا في ترجمة علي ومعاوية قدراً كافيا للتدليل على ما كان لعمرو بن العاص من الأثر الشديد في توجيه الأمـــور لصالح معاوية فلا داعي لتكراره هنا !.

ولما استتب الأمر لمعاوية عينه والياً على مصر حتى أدركته الوفاة بعد أربع سنين من ولايته ، وكان قد نَيَّف على التسعين من عمره ، وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين من الهجرة !.



المغيرة بن شعبة الثقفي

ما جاء الإسلام حتى كان المغيرة بن شعبة قد طارت شهرته بين العرب فى الدهاء والذكاء ، وقد اقترن إسلامه بواحدة من أحابيله: تلك هى أنه صحب جماعة من المشركين فى سفر فقتلهم واستولى على أموالهم ، وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً ، وعرض عليه الأموال التى استلبها من ضحاياه ، فقبل إسلامه ، وقال :

« أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء » [1]

ولهذه القصة تتمة ، فقد حدث أثناء مفاوضات الصلح التى جرت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش يوم الحديبية أن جاء عروة بن مسعود الثقفى من قبل قريش مفاوضاً ، فجعل يكلم الرسول الكريم ، ويمس لحيته ، فقال له المغيرة بن شعبة وكان يلبس عدة الحرب ولا يبدو وجهه منها — : اكفف يدك قبل أن لا تصل إليك ! .

فقال عروة : يامحمد ، من هذا ؟ ما أفظّه وأغلظه ؟ ! .

(١) هامش الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى جزء ١٤ ص ١٣٥ طبعة الساسى .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة ! » .

فقال عروة : ياعدو الله ما غسلتُ عنى سوءتك إلا بالأمس ياغُدَر ! . وكان عروة يقصد من هذه الإشارة إلى أنه قد تحمل ديات الرجال الذين قتلهم المغيرة.

قال الشعبي : دهاة العرب معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو ابن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، فأما معاوية فللأناة والحلم ، وأما عمرو فللمعضلات ، وأما المغيرة فللمبادهة ، وأما زياد فللصغير والكبير ! .

وكان يقال للمغيرة : مغيرة الرأى ، وقال أحد من لازموه فى حياته : صحبت المغيرة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها .

شهد المغيرة معركة اليمامة وفتوح الشام والعراق واليرموك وأصابه سهم أودَى بعينه فيها ثم ولاه عمر البصرة ، ففتح عدة بلاد من بلاد العراق ثم عزله عنها ، وولاه الكوفة بعد ذلك .

قال رجل من قريش لعمر بن الخطاب : ألا تتزوج أم كلثوم بنت أبى بكر ، فتحفظه بعد وفاته ، وتخلفه فى أهله ؟! فقال عمر : بلى إنى لا أحب ذلك ، فاذهب إلى عائشة ، فاذكر لها ذلك ،

وعد إلىَّ بجوابها . ومضى الرسول إلى عائشة فأخبرها بما قال عمر فأجابته إلى ما طلب وقالت حبًّا وكرامة.

ودخل عليها عقب ذلك المغيرة بن شعبة فرآها مهمومة ، فقال لها : مالك يا أم المؤمنين ؟ فأخبرته برسالة عمر ، وقالت : إن هذه جارية حَدَثة[1] وأردت لها ألين عيشاً من عمر ! .

فقال المغيرة : علىَّ أن أكفيك ! وخرج من عندها فدخل على عمر ، فقال : بالرِّفاء والبنين ، فقد بلغنى ما أتيته من صلة أبى بكر فى أهله ، وخطبتك أم كلثوم !.

فقال عمر : قد كان ذاك !

فقال المغيرة : إنك يا أمير المؤمنين رجل شديد الخلق على أهلك ، وهذه صبية حديثة السن . فلا تزال تنكر عليها الشىء فتضربها ، فتصيح فيغمك ذلك ، وتتألم له عائشة ، ويذكرون أبا بكر فيبكون عليه ، فتجدد لهم المصيبة مع قرب عهدها فى كل يوم .

فقال عمر — متى كنت عند عائشة ، واصدقنى ؟ ! .

فقال : كنت عندها آنفاً ! .

فقال عمر : أشهد أنهم كرهونى ، فتضمنت لهم أن تصرفنى عما طلبت ، وقد أعفيتهم !

---

(١) حدثة : حديثة السن :

ولىَّ عمر المغيرة على البحرين ، وكان بها كثير من الأعاجم على دينهم فكرهوه وأعملوا الحيلة فى عزله ، فشكوه إلى عمر فعزله ولكنهم خافوا أن يعيده إليهم بعد أن يقف على بطلان شكواهم منه ، فجمعوا من بينهم مائة ألف درهم وأحضرها دهقانهم[1] إلى عمر ، فقال : ما هذه؟ قال : هذه أموال اختانها المغيرة فأودعها عندى !.

فدعا عمر المغيرة ، فسأله عن جليّة الأمر فقال: كذب الدهقان إنما كانت مائتى ألف ! فقال عمر : وما حملك على ذلك ؟! قال : كثرة العيال ! .

فسُقِط فى يد الدهقان ، وراح يحلف بأغلظ الأيمان أن المغيرة لم يودع عنده قليلا ولا كثيراً .

فقال عمر للمغيرة : ما حملك على هذا ؟ قال :

إنه افترى علىَّ فأردت أن أخزيه ! .

***

لما بويع لعلى بالخلافة جاءه المغيرة ، فقال : يا أمير المؤمنين إن عندى لك نصيحة ! قال ماهى ؟ قال : إن أردت أن يستقيم لك الأمر فاستعمل طلحة بن عبيد الله على الكوفة ، والزبير بن العوام على البصرة ، وابعث بعهد معاوية على الشام حتى تلزمه طاعتك ،

(١) الدهقان : بضم الدال أو كسرها مع سكون الهاء لقب رياسة عند الأعاجم .

فإذا استقرت لك الخلافة ، فأدرها كيف شئت برأيك ! .

فقال علي : أما طلحة والزبير فسأرى رأيي فيهما ، وأما معاوية فلا والله لا أراني مستعملا له ولا مستعيناً به مادام على حاله ، ولكنى أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أبي حاكمته إلى الله ! .

فلما كان من غد جاء المغيرة عليًّا فقال : إني فكرت فيما أشرت به عليك أمس ، فوجدته خطأ ، ووجدت رأيك أصوب ! .

فقال علي : لم يخفَّ عليّ ما أردت . قد نصحتني فى الأولى ، وغششتنى فى الآخرة ، ولكنى والله لا آتى أمراً أجد فيه فساداً لديني طلباً لإصلاح دنياي ! .

ثم ذهب المغيرة فاعتزل الفتنة ، ولم يناصر واحداً من الفريقين على الآخر ، حتى أجمع الناس على معاوية بعد مقتل عليّ ، فذهب إليه ، فولاّه الكوفة .

* * *

كان بين المغيرة بن شعبة — وهو وال على الكوفة — وبين مَصْقَلَة بن هُبَيرة الشيباني(١) تنازع ، فضرع له المغيرة ، وتواضع فى كلامه حتى طمع فيه مصقلة ، واستعلى عليه ، فشتمه وقذفه ،

(١) هو أحد زعماء بنى شيبان .

فأشهد عليه المغيرة ، وحاكمه إلى شريح القاضى ، وأقام عليه البينة فضربه الحد ، فآلى مصقلة على نفسه أن لا يقيم ببلدة فيها المغيرة ما دام حَيًّا، وخرج إلى بنى شيبان بالبادية فنزل فيهم .

فلما مات المغيرة سنة خمسين هجرية ، عاد مصقلة إلى الكوفة فرحب به بنو شيبان المقيمون بها ، فما فرغ من التسليم عليهم حتى سألهم عن مقابر ثقيف فأرشدوه إليها ، فجعل قوم من مواليه الذين كانوا فى صحبته يلتقطون الحجارة وهم فى الطريق ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : ظننَّا أنك تريد أن ترجم قبره ، فقال : ألقوا ما فى أيديكم ، ثم انطلق حتى وقف على قبرة المغيرة ، فقال :

والله لقد كنتَ فيما علمتُ نافعاً لصديقك ، ضاراً لعدوك ، وما مثلك إلا كما قال مهلهل فى أخيه كليب :

إن تحت الأحجار حزماً وعزماً
وخصيما ألدَّ ذا مغلاق[1]
حيَّةً فى الوجار أربدَ لا ينـ
ـفع منه السليم نفثُ الراقى[2]

---

(١) المغلاق : اسم سهم من سهوم القداح الرابحة فى الميسر . والمعنى متجه إلى السيادة والرياسة .

(٢) الوجار : حجر الوحش والسليم هو المصاب بعض الأفاعي أطلق عليه من باب التفاؤل بشفائه ، والنفث هو النفخ وهو ما كان يفعله الراقى من عض الأفاعي فينفخ مكان الجرح .

سعد بن عُبادة

رئيس الخزرج

كان سعد بن عبادة رئيس الخزرج سيداً فى قومه ، حسيباً نسيباً ، كريماسخيًّا ، ورث الكرم عن أبيه وجده ، وصار بيته عند مطلع الإسلام مضرب المثل فى الجود والعَراقة . كان جده دُليم ينادى فى يوم مُعَيَّن من كل سنة : من أراد الشحم واللحم فليأت دار دليم ، فمات دليم ، فنادى منادى عُبادة بمثل ذلك ، ثم مات عبادة فنادى منادى سعد بمثل ذلك . ولما مات سعد جرى ابنه قيس على عادة أبيه وأجداده . وكان يقال : إنه لم يكن فى الأوس والخزرج أربعة مطعمون متتالون فى بيت واحد إلا بيت سعد بن عبادة ! .

لقد أردنا بهذا التعريف أن نبين مكانة سعد بن عبادة فى قوم بنى الخزرج ، لنخلص من ذلك إلى بيان مبلغ الكسب الذى ظفر به الإسلام حين أسلم سعد بن عبادة ليلة العقبة (١) ، وأصبح إسلامه حافزاً لقومه جميعاً على اتباع الدين الحنيف ، ومحرضاً

(١) العقبة : موضع بمكة اجتمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم بجماعة من أهل يثرب فأسلموا . ثم تحالفوا معه على نصرته وهجرته إليهم كما هو معروف.

بنى الأوس على الدخول فيما دخل فيه بنو أعمامهم وأعداؤهم الألداء قبل الإسلام ! .

حين تمت مبايعة الأنصار النبي صلى الله عليه وسلم ، ليلة العقبة الثانية ، تسامعت قريش بذلك ، فهالها الأمر وكَـرَبها الخطب ، إذ أنها أدركت مايتهددها من خطر إذا استندت الدعوة الإسلامية إلى الأوس والخزرج وهم مَـنْ هم شجاعة وإقداماً ، فطلبوهم بين الحجيج فلم يظفروا بهم ! .

ولكن حدث أن أهل العقبة بعثوا سعد بن عبادة والمنذر ابن عمرو إلى مكة ليبتاعا طعاما لهم ، فتعرف عليهم أهل مكة ، فأما المنذر بن عمرو فقد سبقهم وأفلت منهم ، وأما سعد بن عبادة فإنهم أخذوه وضربوه ضرباً مبرّحاً حتى غطى الدم وجهه وثيابه فرحمه رجل من قريش ودنا منه ، فقال : ويحك ! أما لك فى مكة من تستجير به ؟ فقال : لا ! إلا أن العاصى بن وائل السهمى ـ والد عمرو بن العاص ـ قد كان يقدم علينا المدينة فنكرمه ! واتفق أن مخاطبه كان من بنى سهم ، فصاح فى قريش : لقد ذكر ابن عمى ، والله لا يصل إليه أحد منكم ، فكفوا عنه ، وكان اسم الرجل الذى أجاره : عدى بن قيس السهمى ، وقد أسلم بعد ذلك.

ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبنى لنفسه ؛

استضافه سعد بن عبادة طوال حياته الشريفة ، فكان يرسل إليه كل يوم جفنة كبيرة من الثريد إما باللحم وإما باللبن ، وكانت هذه الجفنة تتبع النبي صلى الله عليه وسلم حيث يتنقل بين زوجاته ، بل لقد ذهب بعض المؤرخين (١) إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب المرأة ، ويصدقها ، ويشترط لها صفحة سعد ، تدور معه إذا دار عليها !.

وكان الرجل من المسلمين يستضيف واحداً أو اثنين من أهل الصُّفَّة ، وكان سعد بن عبادة يستضيف خمسين أو ثمانين منهم فى معظم الأيام .

. . . .

لما اعتزم الرسول الكريم الخروج إلى بدر أخذ سعد بن عبادة يدور على البيوت ويندب الرجال للخروج معه ، فلدغ أثناء تجواله وحال ذلك بينه وبين شهود هذه الواقعة ، ومن أجل ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« لئن كان سعد ما شهد بدراً ، لقد كان حريصاً عليها ».

وشهد سعد بن عبادة مع النبي صلى الله عليه وسلم جميع

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي الجزء الأول ص : ١٩٨ طبعة معهد المخطوطات العربية .

مشاهده بعد بدر ، وكانت راية الأنصار معه ، وراية المجاهدين مع على بن أبى طالب .

وحدث يوم فتح مكة أن مرَّ سعد بن عبادة على أبى سفيان — وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمر أن يمر به الجيش لتهوله عظمته — أن قال :

اليومَ يومُ الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذلَّ الله قريشاً ! .

فلما أقبل الرسول عليه الصلاة والسلام فى ركبه وحاذى أبا سفيان — وكان قد أسلم — ناداه يارسول الله ، أمرت بقتل قومك ! .

فإنه زعم سعد ومن معه حين مرّ بنا أنه قاتلنا ، ثم أعاد ما قاله سعد وعقَّب على ذلك بقوله : وإنى أنشدك الله فى قومك فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم ! .

فقال الرسول الكريم : لا يا أبا سفيان ، اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله قريشاً ، ثم أمر أن تنزع الراية من سعد ، وتعطى لابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عنه إذ صار إلى ابنه ! .

ولسعد بن عبادة موقف جليل شارك فيه سعد بن معاذ سيد الأوس ، فقد حدث حين أحاط الشر بالمسلمين من كل جانب

فى غزوة الأحزاب ، وظاهر يهود بنى قريظة جيوش قريش وحلفاءها ، أن اتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مفاوضة عيينة بن حصن الفزارى وكان تحت إمرته بضعة ألوف من الجنود فى أن ينسحب عن المدينة بجيشه على أن يعطيه ثلث تمر المدينة ، ولكنه حرص قبل عقد العهد أن يقف على رأى سعد بن عبادة رئيس الخزرج وسعد بن معاذ رئيس الأوس ، فاستدعاهما وعرض عليهما الأمر ، فقالا :

يارسول الله ، إن كنت أمرت بشيء فافعله وامض له ، وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف ! .

فقال : « لم أؤمر بشيء ، ولو أمرت بشيء ماشاورتكما ، وإنما هو رأى أعرضه عليكما ! » .

فقالا : والله يارسول الله ماطمعوا بذلك منّا قطّ فى الجاهلية ، فكيف اليوم ، وقد هدانا الله بك ، وأكرمنا وأعزّنا ، والله لا نعطيهم إلا السيف ! .

فَسُرَّ بذلك الرسول الكريم ودعا لهما ، ثم قال لعيينة بن حصن ومن معه : « ارجعوا فليس بيننا وبينكم إلا السيف ! » .

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رشح سعد بن عبادة نفسه خليفة على المسلمين ، واجتمع بنفر من الخزرج والأوس

فى سقيفة بنى ساعدة فقصد إليه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ، وتداولوا فى الأمر .

ولم يكن من الصعب إظهار أولوية أبى بكر فى هذا المقام على جميع المسلمين ، وذلك لقدم سابقته فى الإسلام وللتوجيه المستفاد من تقديم النبي صلى الله عليه وسلم له فى جميع المواطن ولا سيما إصراره على أن يخلفه فى الصلاة بالمسلمين أثناء مرضه ، ومن أجل ذلك بايع الأنصار جميعاً — ما عدا سعدَ بن عبادة — أبا بكر بالخلافة .

أما سعد بن عبادة فإنه لزم بيته ولم يَهِجْه أبو بكر ، فلما استُخلف عمر ، خرج سعد إلى حوران ومات بها ، لسنتين ونصف مضتا من خلافة عمر .



سعد بن معاذ
رئيس الأوس

كان سعد بن معاذ رئيس الأوس عند النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة للأنصار كما كان أبو بكر عنده بالنسبة للمهاجرين ، وكان الرسول الكريم يحبه ويعظمه ويقدمه ، وكان أهلا لذلك لما فطره الله عليه من الاستقامة والمروءة والنجدة !.

أسلم سعد بن معاذ قبل هجرة الرسول الكريم إلى المدينة ببضعة أشهر ، وكانت لإسلامه قصة طريفة تتلخص فى أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل مصعب بن عُمَيْر القرشي وأحد السابقين إلى الإسلام إلى المدينة قبل الهجرة ؛ ليفقّه من أسلم من أهلها فى الدين ، ويؤمهم فى الصلاة .

وبلغ سعدا ذات يوم أن مصعب بن عمير ومعه بعض مسلمى الأوس وعلى رأسهم أسيد بن حضير — وكان ابن خالة سعد — يجلسون فى بستان قريب منه يتدارسون الدين ، فأرسل إليهم أسعد بن زُرارة أحد زعماء الأوس ليزجرهم عن ممارسة شئون دينهم علانية ، وينهاهم عن إغواء بنى قومه وإدخالهم فى هذا الدين الجديد ، ولكن أسعد راح إلى القوم فسمع القرآن وشرح الله

صدره للإسلام ، فرجع إلى سعد مسلماً ، وأراد أن يدخله في الإسلام فاحتال عليه وادَّعى أن جماعة من بني حارثة قد تنادوا للهجوم على أسيد بن حضير ومن معه ، فحمي سعد حِفاظاً لابن خالته ، وأخذ سلاحه ، ومضى نحو الجماعة ، فلم يجد حربا ولا شِجارا ، وعلم أن أسعد بن زرارة قد احتال عليه ليجيء به إلى القوم ، ويسمع حديثهم ! .

ووقف سعد على رأس أسيد بن الحضير ومن معه ، فقال : يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة . مارمت هذا مني ، أتغشانا في دارنا بما نكره ؟! .

فابتدره مصعب بن عمير فقال : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ! .

فقال سعد : أنصفت ! ثم ركز حربته وجلس ، فقرأ مصعب عليه القرآن ، وعرض عليه الإسلام ، فاطمأنَّ قلبه وانشرح صدره ، ثم قال : كيف تفعلون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟ فأرشدوه إلى مدخل الإسلام من الطهور والشهادتين والصلاة ، ولم يبرح مجلسهم حتى كان مسلماً !.

ورجع سعد إلى قومه فقال :

يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟! .

قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة ! .

قال : فإن كلامكم ، رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله ، فما أمسى فى دور بنى عبد الأشهل — وهم سادة الأوس — رجل أو امرأة إلا على الإسلام ! .

وكان لسعد بن معاذ موقف ليس كمثله فى نصرة الإسلام ، وليس من المبالغة فى شيء القول بأنه لولا موقف سعد هذا لما كان أحد يعلم إلا الله ماذا سيكون مصير الدعوة الإسلامية ، ومتى تظفر بالفرصة التى تهيء لها الفوز والانتشار إذا فاتتها هذه الفرصة السانحة ! .

وقد ـ عنينا بما ذكرنا ـ موقفه يوم بدر حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه ليلاحق تجارة قريش ، وتوقع أن تكون هناك حرب بينه وبينها ، وقد علم أنها خرجت لتدافع عن عيرها[1] ، لقد كانت كثرة أصحابه الذين خرجوا معه من الأنصار ، ولم يكن العهد الذى قطعه الأنصار على أنفسهم من مناصرة الرسول يلزمهم أن يحاربوا معه خارج المدينة ، فأراد أن يطمئنّ إلى موقفهم ، فشرح الأمر لأصحابه جميعاً ، وكيف أن احتمال الحرب أصبح قريباً ، ثم قال : « أشيروا على أيها الناس »

(١) العير : قافلة التجارة .

فوقف بعض المهاجرين ، وقال خيراً ، فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم ما قال ، وفطن سعد بن معاذ إلى قصده ، فقال : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله !.

فقال : نعم !.

فقال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فهو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غدا، إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينُك ، فسر بنا على بركة الله !.

وقد سَرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بمقالةسعد ، وقال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين(١) ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم !».

ولما تواقف الفريقان وأزف القتال جاء سعد بن معاذ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتوسط صفوف المسلمين ، وقال :

---

(١) أى النصر أو الاستيلاء على تجارة قريش .

يا رسول الله ، ألا نبني لك عرشاً تكون فيه ، ونُعِدّ لك ركائبك ، ثم نلقى عدوّنا ، فإن أعزّنا الله تعالى وظهرْنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام . يا نبي الله ما نحن أشدّ لك حبًّا منهم ، ولا أطوع لك رغبة منهم في الجهاد ونيَّة ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، إنما ظنوا أنها العير ، يمنعك الله بهم ، ويناصحونك ويجاهدون معك ! .

فقال عليه الصلاة والسلام : « أو يقضي الله خيراً من ذلك » أي النصر ، ومع ذلك أقيم العريش على أنه تدبير من تدابير الوقاية السليمة ، وكان على تلّ مرتفع يشرف على المعركة ، ووقف على بابه سعد بن معاذ ، وجماعة من صفوة المهاجرين والأنصار لحراسة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وشهد سعد بن معاذ واقعة الخندق ، ولما شاع أن يهود بني قريظة قد حالفوا قريشاً والأحزاب أرسله النبي صلى الله عليه وسلم هو وسعد بن عبادة رئيس الخزرج ليتبينا جلية الأمر ، فأساء اليهود استقبالهما ، وتطاولوا عليهما وعلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن أجل ذلك اشتد حَنَق سعد بن معاذ عليهم لأنهم كانوا حلفاء الأوس في الجاهلية ، وقد انتهزوا أسوأ

المواقف لعداوة المسلمين ؛ فقد كانت قريش والأحزاب تحاصر المدينة من أمام ، وجاءوا هم من خلف ، يتهددون المدينة ، ويزيدون الموقف حرجاً ، والحال تأزماً ، ولذلك اتجه سعد إلى الله عز وجل بعد أن رمى بسهم أصاب منه مقتلا فقال : اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة ، فاستمسك عرقه ، فلم تقطر منه قطرة حتى نزلوا على حكمه بعد أن هزم الله الأحزاب، فقضى أن يُقتل رجالهم ،وتسبي نساؤهم وذراريهم !.

ثم عاد إلى مكانه الذى كان يعالج فيه من المسجد فانفتق عرقه فمات شهيداً ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم حين مات :

« اهتز العرش لموت سعد بن معاذ ! » .

وقالت أم سعد تبكيه :

ويلُ أم سعد سعدا حزامة وجدّا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كل باكية تكذب إلا أم سعد ثم قال لها : « ألا يرقأ(١) دمعك ، ويذهب حزنك ؟ فإن ابنك أول من ضحك الله له ، واهتز له العرش » .

كانت سن سعد عند وفاته سبعة وثلاثين عاما ، وقد توفى فى السنة الرابعة من الهجرة .

---

(١) يرقأ : يكف .

معاذ بن جبل

سيد العلماء

كان معاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى سيد العلماء من الصحابة وواحد الدهر ظرفاً ونبلاً وجوداً وسخاء، وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيهاً مقرباً محبوباً.

أسلم معاذ، وشهد العقبة شاباً أمرد فى حدود العشرين من سنه، ولازم الرسول الكريم وقلبه متفتح للعلم، وذهنه متشوق للمعرفة، فوهبه الله من ذلك ما طابت به نفسه، وقرت به عينه، وجعله بين الصحابة فى منزلة الأستاذ، ومكانة الإمام!.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدها فى دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد (زيد بن ثابت) ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة».

وقال: يأتى معاذ بن جبل يوم القيامة بين يدى العلماء برَتْوَة[1].

ولقيه الرسول الكريم. فقال له: «إنى لأحبك فى الله» فقال. وأنا يا رسول الله أحبك فى الله. قال: «أفلا أعلمك

(١) الرتوة بفتح الراء وسكون التاء: رمية سهم، وقيل مسافة امتداد البصر.

كلمات تقولهن دبر كل صلاة : « رب أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

* * *

قال معاذ : لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال لى : « كيف تقضى إن عرض قضاء » ، قلت : بما فى كتاب الله ، فإن لم يكن فبما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « فإن لم يكن فيما قضى به الرسول » ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو[1] . فضرب صدرى ، وقال :

« الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله »

وخرج النبى صلى الله عليه وسلم يودعه ماشياً ومعاذ راكب فلما فرغ من وداعه وإيصائه قال :

« يا معاذ ! إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدى ومقامى » ، فبكى معاذ حزناً لفراق رسول الله ، فقال : « لا تبك يا معاذ ، إن البكاء من الشيطان » .

* * *

ولسفر معاذ إلى اليمن قصة رواها جابر بن عبد الله يجمل بنا أن نوردها فى ترجمته كما هى :

قال جابر : كان معاذ بن جبل من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم

---

(١) ولا آلو : أى ولا أقصر .

خلقاً ، وأسمحهم كفاً . فادّان ديناً كثيراً فلزمه غرماؤه حتى تغيب عنهم أياماً فى بيته ، فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاضونه ، فأرسل إليه فحضر ومعه غرماؤه ، وقالوا يارسول الله ، خذ لنا حقنا منه ! فقال :

« رحم اللهُ من تصدق عليه » ، فتصدق عليه ناس وأبى آخرون ، فقال الرسول الكريم : اصبر لهم يا معاذ ، ثم خلعه من ماله كله ، فاقتسموه بينهم ، فأصابهم خمسة أسباع حقوقهم ، فقالوا : بعه لنا يا رسول الله ، فقال :

« خلُّوا عنه فليس لكم إليه سبيل ! » .

وانصرف معاذ إلى بيته ، فأحاط به قومه : بنوسَلَمه ، فقالوا : يا أبا عبد الرحمن لو سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أصبحت معدماً ! قال : ما كنت لأسأله !

ومكث يوماً ثم دعاه النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعثه إلى اليمن عام الفتح قاضياً ، وقال : « لعل الله يجبرك ويؤدّى عنك دينك » ثم دعا له فأكثر ! .

وظل معاذ باليمن حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم على أبى بكر ، ومعه طائفة من العبيد اشتراهم ليعملوا له . فقال له عمر ادفعهم إلى أبى بكر فتردد ، وقال : إنما بعثنى

رسول الله إلى اليمن ليجبرنى ، ثم استجاب لرأى عمر أخذا بالأحوط ودرءاً للشبهة وإن قلّت ، فأبى أبو بكر أن يقبلهم وسوّغه ماله .

ولكن حدث صبيحة اليوم التالى أن ذهب معاذ إلى المسجد فرأى عبيده يصلون ، فقال : لمن تصلون ؟ فقالوا : لله ، قال : فأنتم لله . وأعتقهم لوجه الله الكريم ! .

امتحان :

بعث عمر بن الخطاب بأربعمائة دينار إلى أبى عبيدة بن الجراح مع غلام له وقال : تلكأ قليلا فى البيت حتى تنظر ما يصنع بها !.

وذهب الغلام بالدنانير إلى أبى عبيدة ، وقال له : يقول لك أمير المؤمنين خذه ! فقال أبو عبيدة : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالى يا جارية : اذهبى بهذه الدنانير السبعة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها كلها إلى ذوى الحاجة من المسلمين ! .

ورجع الغلام إلى عمر فأخبره بما حدث ، فأعطاه أربعمائة دينار أخرى وقال له : اذهب بهذه إلى معاذ بن جبل ، فقال معاذ : وصله الله ، يا جارية ، اذهبى إلى بيت فلان بكذا ، ولبيت فلان بكذا ، ومضى يعدد البيوت ويعين مقادير ما يرسل إلى كل منها ! فأطلت امرأته عليه ، وقالت :

ونحن والله مساكين فاعطنا !.

وكان قد بقى ديناران من الأربعمائة فأعطاهما لها !.

ورجع الغلام إلى عمر فأخبره بما رأى وسمع ، فسر بذلك وقال : إنهم إخوة بعضهم من بعض !.

✡ ✡ ✡

غاب رجل عن امرأته سنين ثم جاء فوجدها حاملا ، فأتى عمر بن الخطاب فهم برجمها . فقال له معاذ بن جبل : إن يك لك عليها سبيل ، فليس لك على ما فى بطنها سبيل ، فتركها ، فوضعت غلاماً قد خرجت ثناياه وهو شديد الشبه بأبيه ، فقال الرجل هذا ابنى !.

فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ . لولا معاذ لهلك عمر !.

وكان عمر يقول حين خرج معاذ إلى الشام مجاهداً ، لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها فى الفقه !.

✡ ✡ ✡

ولما أصيب أبو عبيدة بن الجراح أمير الشام بطاعون عَمَوَاس(١) ، وأحس الموت استخلف معاذ بن جبل ، ولكنه أصيب كذلك بالطاعون ومات وهو دون الأربعين .

---

(١) عمواس : قرية بين الرملة وبيت المقدس .

أبو ذر الغفاري

كان أبو ذر الغفارى الصحابى الجليل أمةوحدة فى الرأى والزهد والاستمساك القوى المتين بأصول الهدى الإسلامى والسيرة المحمدية ، وقد امتد به العمر حتى أصبح إجماع إخوانه من الصحابة معقوداً على أنه الصحابى الوحيد الذى حافظ كل المحافظة على سمته الذى تركه النبى صلى الله عليه وسلم عليه : هذا السمت الذى طوّع الرسول الكريم أن يقول فيه :

« ما أقلّت الغبراء ، ولا أظلّت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبى ذر » .

وقال :

«من سرّه أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم فلينظر إلى أبى ذر » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه :

« أيكم يلقانى على الحال الذى أفارق عليه ؟ » .

فقال أبو ذر : أنا يا رسول الله! .

وقد التزم أبو ذر هذا العهد طوال حياته ولم ينحرف عنه

قِيدَ أنملة ، بل لقد بالغ فى التحنث واجتهد فى التزمت حتى قال علِى بن أبى طالب :

لم يبق أحد لا يبالى فى الله لومة لائم ، غير أبى ذر ، ولا نفسى ، ثم ضرب بيده على صدره ! .

وقال أبو ذر : إنى لأقربكم مجلساً من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، إنى سمعته يقول :

« إن أقربكم منى مجلساً من خرج من الدنيا كهيئته بما تركته عليه » .

والله ما منكم إلا من تشبث منها بشىء (يقصد الدنيا) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتدئ أبا ذر إذا حضر ، ويتفقده إذا غاب .

قاطع الطريق :

وليس من شك فى أننا نعالج وصف شخصية فذة ، ذلك أن هذا الرجل الذى أسلفنا وصفه كان فى الجاهلية قاطع طريق وأحد الذين يسعون فى الأرض فسادا . قال خفاف بن إيماء[1].

كان أبو ذر رجلا يصيب الطريق ، وكان شجاعا ، ينفرد

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي الجزء الثانى طبعة معهد المخطوطات العربية ص ٣٨ .

وحده بقطع الطريق ، ويغير على الصرم[1] فى عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه كأنه السبع ، ويأخذ ما يريد . وسمع مقالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ يدعو مختفياً ، فأقبل يسأل عنه .

وجاء أبو ذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى قصة طويلة ذكرتها كتب السيرة ، وطلب أن يعرض عليه الإسلام فأجابه إلى ما طلب ، ثم سأله : من أنت ؟ فقال : جندب من غفار!.

قال أبو ذر : فرأيتها[2] فى وجهه الكريم ، وكان فيهم — أى فى قومه غفار — من يسرق الحاج وكنت رابع الإسلام .

ولما أسلم أبو ذر قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ارجع إلى قومك فأخبرهم ، واكتم أمرك عن أهل مكة ؛ فإنى أخشاهم عليك » .

فقال : والذى نفس بيده لأصوّتن بها بين ظهرانيهم ..

وخرج أبو ذر حتى أتى المسجد الحرام ، فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فثار القوم

---

(١) الصرم والصرمة : القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين .

(٢) فرأيتها : الضمير هنا عائد على أمارة الدهشة والعجب التى بدت على وجه الرسول حين ذكر أبو ذر أنه من غفار وهى على ما هى عليه من الفساد .

إليه وضربوه حتى ألقوه على الأرض فاقد الحراك ، فجاء العباس ابن عبد المطلب وانحنى فوقه بظهره ليحميه ، وقال ويلكم ألستم تعلمون أنه من غِفار ، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم ، وأنقذه منهم !.

ثم عاد أبو ذر من غد إلى مثلها ، فضربوه كما فعلوا بالأمس ، وأنقذه العباس منهم كذلك ! .

ثم لحق بقومه فدعاهم إلى الإسلام ، فأسلم نصفهم ، وأجل النصف الآخر إسلامه حتى يلق الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه . فلما هاجر الرسول إلى المدينة رحل إليه أبو ذر فى السنة الرابعة من الهجرة ، وحين رآه عرفه ، ولكنه وهِم فى اسمه ، فقال . أنت أبو نملة ؟ فقال أبو ذر : أنا أبو ذر ، فقال الرسول : نعم أبو ذر ! .

وشهد أبو ذر مع النبى صلى الله عليه وسلم مشاهدة كلها منذ مقدمه عليه ، وكانت راية غفار يوم الفتح معه ، وحدث فى غزوة تبوك أن سار مع جيش العسرة ـ كما كانت تسمى ـ فعجز بعيره عن مسايرة الركب ، فتخلف عن الجيش ، فلما رأى أن البعير لا يسعفه نزل عنه ، وحمل متاعه على ظهره ، وسار فى أثر الجيش. وبينما المسلمون فى بعض منازلهم إذ رأوا من بعيد رجلا

فى طريقه إليهم ، فقال الرسول الكريم : « كن أبا ذر ! » .

فلما تأمل القوم القادم ـ وكان قد قرب منهم ـ قالوا : هو والله أبو ذر يارسول الله . فقال قولته المشهورة :

« يرحم الله أبا ذر ؛ يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويُحشر وحده ! » .

* * *

خرج أبو ذر إلى الشام مجاهداً إثر وفاة أبى بكر ، وظل بها طوال مدة خلافة عمر ، فلما استُخلف عثمان ، أنكر أبو ذر على معاوية بن أبى سفيان أمير الشام كثيراً من مظاهر الأبهة والمغالاة فى إنفاق الأموال فى غير أبوابها ، والبعد عن المراسم التى كانت الأمور تجرى عليها أيام النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبى بكر وعمر ، فأخذ يلوم معاوية على هذا الانحراف ويجابهه بذلك . ثم يتحدث به إلى الناس ، وكانت لاتزال فيهم بقية من الاستقامة وحب الفطرة الإسلامية ، فراحوا يتحلّقون حوله ، ويسأله من كان حديث العمر أو الإسلام عما كان عليه الأمر قبلا ، فيجيبهم إلى ماسألوا بإفاضة لا تخلو من المقارنة والتعليق !

وأدرك معاوية مبلغ ما يتهدّده من الخطر من جراء حملة أبى ذرّ ، فقد كان المعجبون بمذهبه فى ازدياد مستمر ، فكتب

إلى الخليفة عثمان يشكوه ، ويقول له : إن كانت بك حاجة إلى الشام ، فاستقدم إليك أبا ذرّ .

وكان أبو ذر قد عاهد الرسول الكريم على أن يطيع خلفاءه ، فاستجاب لدعوة عثمان وقال : لو أمرنى عثمان أن أمشى على رأسى لمشيت ؛ غير أنه مع التزامه الطاعة لم يكن يسعه أن يمسك لسانه عن النقد وإنكار ما كان بدعاً فى رأيه ، وكان أكثر ما يتحاشاه التحريض على الفتنة ، إنما كان يريد الإصلاح ، والعود بالأمور إلى ما كانت عليه فى العهد السابق .

ولما دخل أبو ذر على عثمان بالمدينة قال له : مرحباً وأهلا أخى ! فقال أبو ذر : مرحباً وأهلا بأخى ، لقد أغلظت علينا فى العزيمة ، والله لو عزمت على أن أحبو لحبوت . والله ما أنا منهم يا أمير المؤمنين (يريد الخوارج) .

فقال عثمان : صدقت يا أبا ذر ، إنما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة ! قال : لا حاجة لى فى ذلك ، ائذن لى إلى الرَّبَذة[1] ! قال : نعم ، ونأمر لك بنعم من الصدقة ! قال : لا حاجة لى فى ذلك ، يكفى أبا ذر صريمته[2] .

(١) الربذة : مكان يبعد عن المدينة ببضعة فراسخ.
(٢) أى تقدم شرح كلمة الصرمة.

وسار أبو ذر إلى الربذة فمكث بها حتى أدركته الوفاه ، وسمع وهو يحتضر امرأته تبكى فقال : مايبكيك ؟ قالت : ألا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض ، وليس عندى ما أكفنك به ولا بد لى للقيام بدفنك ! .

فقال أبو ذر : أبشرى فإن النبي صلى الله عليه وسلم وعدنى أن تشهد موتى عصابة من المؤمنين ، فأبصرى الطريق ! فقالت أنى وقد ذهب الحاج ؟! قال : اذهبي وتبصرى ، وذهبت أم ذر فرأت ركباً قادماً ، فأشارت إليهم ، فوقفوا وسألوها ماخطبها وكان بينهم الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ، فقالت : امرؤ من المسلمين يموت ، تكفنونه وتدفنونه ! قالوا : من هو ؟ قالت : أبو ذر الغفارى ! .

فبكى عبدالله بن مسعود بكاء طويلا وذكر نبوءة الرسول الكريم بشأن عيش أبى ذر وموته وحده ، ثم ذهب إليه وهو يجود بنفسه فودعه وواساه . وكانت آخر وصاة لأبى ذر رغبته فى أن يكفن بثوب امرئ منهم لم يل ولاية من أى نوع ! فقال فتى من الأنصار كان بين الركب : أنا لم أل ولاية مطلقاً وسأكفنك ياعم بثوبين من غزل ، فانفرجت أسارير أبى ذر ومات سعيداً بلقاء ربه ، وخروجه من دنياه وله الغلبة عليها ! .

عبدالله بن مسعود

الصحابة

الذين أحبهم النبي صلى الله عليه وسلم كثيرون ، ولكننا نراه قداختص عبدالله بن مسعود بخصوصية لم نرها لغيره ، وما ظنك برجل يقول الرسول الكريم فى وصفه : « لو كنت مؤمّراً أحداً عن غير مشورة لأمرت عليهم ابن أم عبد ! ! » [1] ويقول : « رضيت لأمتى ما رضى لها ابن أم عبد ! » .

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : جئت يا أمير المؤمنين من الكوفة ، وتركت بها رجلا يملى المصاحف عن ظهر قلب ، فغضب عمر وانتفخ ، وقال : من هو ويحك ؟ ! فقال : عبد الله ابن مسعود ! فسُرِّى عن عمر ، وقال : ويحك ! والله ما أعلم أنه قد بقى أحد من الناس هو أحق بذلك منه ، وسأحدثك :

كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال يسمُر عند أبى بكر ، وإنه سَمَر عنده ليلة وأنا معه ، فخرج وخرجنا معه ، فإذا رجل قائم يصلى فى المسجد ، فقام الرسول يسمع قراءته وسألته عنه ،

---

(١) أم عبد : هى أم عبد الله بن مسعود وكان يكنى بها .

فغمزني بيده ـ أي اسكت ـ فلما كدنا أن نعرفه قال :

« من سرَّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل ، فليقرأه على ابن أم عبد » .

ثم أخذ عبد الله في الدعاء ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سل تعط » .

وكان دعاء عبد الله : اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد ، ونعيماً لا ينفد ، ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنان الخلد ! .

قال عمر : فغدوت إليه لأبشره ، فوجدت أبا بكر قد سبقني ، وما سابقته إلى خير قط إلا سبقني ! .

* * *

كان عبد الله بن مسعود من أوائل الناس إسلاماً ، هاجر الهجرتين (١) ، وشهد بدراً ، واليَرْموك وغيرها .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينزله منزلة واحد من أهله ويكل إليه القيام بشئونه الخاصة ، فكان يدخل عليه بيوته ويلبسه نعليه ، ثم يمشي أمامه بالعصا ، حتى إذا نزع نعليه عند المسجد حملهما عبد الله وأعطاه العصا . وكان يستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ، ثم كان فوق هذا كله صاحب سره والآذن عليه ! .

(١) الهجرتين : أي إلى الحبشة وإلى المدينة .

قال أبو موسى الأشعرى : لما قدمت المدينة مكثت سنة وأنا ما أحسب عبد الله بن مسعود وأمه إلا من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم لكثرة دخولهما عنده وخروجهما من بيته !.

وقال حذيفة : إن أشبه الناس هدياً ودلاً وسمتاً وخطبة برسول الله صلى الله عليه وسلم من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع لعبدُ الله بن مسعود !.

قال عبد الله بن مسعود : قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرأ علىّ القرآن » قلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى » فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » (١) فغمزنى برجله ، فإذا عيناه تذرفان !.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة : إننى قد بعثت عليكم عماراً أميرا وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من أهل بدر ، فاسمعوا لهما ، واقتدوا بهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى !.

وقال عبد الله بن مسعود : كنا إذا تعلمنا من النبي صلى الله عليه وسلم

(١) سورة النساء : آية رقم ٤١ .

عشر آيات لم نتعلم العشر التى نزلت بعدها حتى نعلم ما فيها (يعنى من العلم) .

وقال على بن أبى طالب يصف ابن مسعود :

قرأ القرآن وأحل حلاله وحرم حرامه ، فقيه فى الدين ، عالم بالسنة .

وقال أبو موسى الأشعرى : مجلس كنت أجالسه ابن مسعود أوثق فى نفسى من عمل سنة .

* * *

ومن كلام عبد الله بن مسعود : لو سخرت من كلب لخشيت أن أكون كلباً ، وإنى لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس فى عمل آخرة ولا دنيا .

ارضَ بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس ، واجتنب المحارمَ تكن من أورع الناس . وأدِّ ما افترض عليك تكن من أعبد الناس ! .

وكان عبد الله بن مسعود على كثرة ملازمته النبي صلى الله عليه وسلم وسماعه حديثه ، يتهيب أن يروى أحاديثه الشريفة ، قال عمرو بن ميمون : صحبت عبد الله ثمانية عشر شهرا فما سمعته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديثاً

واحداً ، فرأيته يفرق [1] ثم غشيه بهر [2] .

مرض عبد الله بن مسعود فعاده عثمان بن عفان . فقال : ما تشتكى ؟ قال : ذنوبى ! قال : فما تشتهى ؟ قال : رحمة ربى !. قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال الطبيب أمرضنى : قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لى فيه ! .

مات ابن مسعود بالمدينة ودفن بالبقيع سنة اثنتين وثلاثين هجرية وعمره بضع وستون سنة .



---

(١) فى القاموس المحيط فرق يفرق كفرح يفرح : فزع .
(٢) البهر : انقطاع النفس .

أبو هريرة

هو الإمام الفقيه المجتهد عبد الله بن عامر الدوسي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه الذى لازمه أكثر من غيره ، وعاش معه فى مسجده وعلى مائدته وفى أسفاره وغزواته ، ووعى حديثه ونقله عنه صحيحاً مستفاضاً حتى عده المحققون أكثر الصحابة رواية للحديث على الإطلاق ، إذ بلغ مسنده خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وستين حديثا ، وروى عنه أكثر من ثمانمائة صحابي وتابعي : منهم عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك الصحابي الجليل وخادم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمين .

قدم أبو هريرة المدينة مهاجراً حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة خيبر فأسلم .

وصحب النبي صلى الله عليه وسلم أربع سنين ، وكان من أهل الصُّفَّة ، وهم جماعة المسلمين الفقراء من المهاجرين الذين لم يأخذوا من أسباب الحياة بسبب وثيق فكانوا ينامون فى المسجد ويأكلون مما يطعمهم الله ورسوله وذوو اليسار من الأنصار والمهاجرين !.

وكان المسلمون عامة فى ضيق شديد أثناء هذه الفترة يستوى فى ذلك فقراؤهم وأغنياؤهم ، فقد أرهقت تكاليف الحروب ومغارم الضيافة والإيواء الأنصار ، حتى شحت الأموال ، وتضاءلت الأرزاق ، وكان يحدث أن يحسب الرجل نفسه قد دعى إلى وليمة إذا حصل على تمرتين فى اليوم ! .

قال أبو هريرة : خرجت يوماً من بيتى إلى المسجد ، فوجدت نفراً ، فقالوا : ما أخرجك ؟ قلت : الجوع ! فقالوا : نحن والله ما أخرجنا إلا الجوع ! .

« فقمنا فدخلنا على رسول الله فقال : ما جاء بكم هذه الساعة فأخبرناه ، فدعا بطبق فيه تمر . فأعطى كل رجل منا تمرتين ، فقال : « كلوا هاتين التمرتين ، واشربوا عليهما من الماء ، فإنهما سيجزيانكم يومكم هذا ! » .

قال أبو هريرة : فأكلت تمرة وخبأت الأخرى ، فقال : « يا أبا هريرة ، لم رفعتها ؟ قلت : لأمى ! قال : كلها فسنعطيك لها تمرتين ! » .

وهناك قصة أخرى رواها أبو هريرة عن نفسه تؤكد حاله من الفقر والمسغبة ، وتزيد الصورة التى رسمتها القصة الماضية وضوحاً وبياناً ، قال :

والله ، إن كنت لأعتمد على الأرض وأشد الحجر على بطني من الجوع . ولقد قعدت على طريقهم ، فمر بي أبو بكر فسألته عن آية في كتاب الله ـ ما أسأله إلا ليستتبعني[1] ـ فمرّ ولم يفعل فمر عمر ، فكذلك ، حتى مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرف ما في وجهي من الجوع ، فقال : أبو هريرة ؟ قلت : لبَّيك يارسول الله . فدخلت معه البيت ، فوجد لبناً في قدح ، فقال : من أين لكم هذا ؟ قيل : أرسل إليك به فلان ، فقال : يا أبا هريرة ، فانطلق إلى أهل الصفة فادعهم » ـ وكان أهل الصفة أضياف الإسلام . لا أهل ولا مال ، إذا أتت رسول الله صدقة أرسل بها إليهم ، ولم يصب منها شيئاً ، وإذا جاءته هدية أصاب منها وأشركهم فيها ـ فساءني إرساله إياى فقلت : كنت أرجو أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوّى بها ، وما هذا اللبن فى أهل الصفة ؟ ولم يكن من طاعة الله ورسوله بدٌّ ، فأتيتهم ، فأقبلوا مجيبين ، فلما جلسوا قال : « خذ يا أبا هريرة فأعطهم » .

فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يروى ، حتى أتيت على جميعهم ، وناولته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع رأسه إلى مبتسما ، وقال : « بقيت أنا وأنت ! » قلت : صدقت

(١) ليستتبعني : أى يدعوني أن أتبعه إلى بيته .

يا رسول الله ، قال : فاشرب ، فشربت ، فقال : فاشرب ! فشربت ! فما زال يقول : اشرب فأشرب حتى قلت : والذى بعثك بالحق ، ما أجد له مساغا ! .

فأخذ فشرب من الفضلة! .

وفى هذه القصة من مكارم الرسول وبركاته مالا يخفى ، فقد فطن إلى صراخ الجوع تصخب به أسارير أبى هريره فاستجاب لهذه الدعوة الصريحة ، ولم يؤثر بكرمه أبا هريرة خاصة بل أدرك أن إخوانه بهم مثل ما به من جوع ، فأشركهم جميعاً فيما آتاه الله ثم بدأ بهم حتى اكتفوا وشرب من فضلتهم .

وانظر إلى اللفتة الكريمة الماثلة فى دعوته أبا هريرة إلى الشرب مرة وأخرى حتى امتلأ بطنه ، وانقلب إلى كِظَّة لا يجد معها مساغا للطعام ، لكأن الله عز وجل قد أطلعه على ما تحدث به أبو هريرة إلى نفسه حين أرسله ليدعو أهل الصفة من قلة الطعام وكثرة الآكلين ، فكان جوابه عن هذا الحديث الذى صدق أبو هريرة فيه فى تصوير نفسه : إليك فاشرب ثم اشرب حتى تزول هواجسك وتذهب وساوسك ! .

وقد أبدل الله سبحانه وتعالى فيما بعد أبا هريرة من هذه الحال المكربة غنى واسعا وجاها عظيما ، فاقتنى الألوف وولى

الإمارة ، وصار عمدة فى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته . حتى أصبح كبراء الصحابة يحيلون السائلين عليه إذا سئلوا عن حديث لرسول الله ، ويقولون : كان أكثرنا ملازمة له ووعياً عنه .

جاء رجل إلى زيد بن ثابت ، فسأله عن شيء ، فقال : عليك بأبي هريرة ، فإنه بينما أنا وهو وفلان بالمسجد ندعو ، خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ، وقال ، «عودوا إلى ما كنتم » فدعوت أنا وصاحبي ، ورسول الله يؤمن ، ثم دعا أبو هريرة فقال : اللهم إنى أسألك مثل ما سألاك ، وأسألك علماً لا ينسى ، فقال رسول الله : آمين .

فقلنا : ونحن نسألك علما لا ينسى ، فقال : « سبقكما بها الغلام الدوسيّ ! » .

استعمل عمر أبا هريرة على البحرين ، فقدم بعشرة آلاف درهم ، فقال له : « استأثرت بهذه الأموال ، يا عدوّ الله وعدوّ كتابه ! » .

فقال أبو هريرة : « لست بعدوّ الله ولا عدوّ كتابه . ولكني عدو من عاداهما » .

قال : فمن أين هى لك ؟ قال : خيل نُـتجت ، وغـلـَّة رقيق لى ، وأعطية تتابعت ! .

وفحص عمر الأمر فوجده كما قال أبو هريرة ، فسوغه ماله ، ثم دعاه فيما بعد ليولـّيه إمارة ، فأبى ! فقال عمر :

« تـكره العمل ، وقد طلبه من كان خيراً منك : يوسف عليه السلام »(١) .

فقال أبو هريرة : يوسف نبي ابن نبي ، وأنا أبو هريرة ابن أميمة : أخشى أن أقول بغير علم وأن يضرب ظهرى وأن ينزع مالى ويشتم عرضى ! .

وكان أبو هريرة على سعة علمه وكرم أخلاقه ، خفيف الروح ذا دُعابة مستحبة تجنح به دائماً إلى البساطة والتواضع .

قال يوماً لأصحابه : لاتكنونى أبا هريرة ، كـنـّانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا هِر ، فقال : ثكلتك أمك أبا هر ، والذكر خير من الأنثى ! .

وسئل يوماً : لم كنوك أبا هريرة ؟ قال كنت أرعى غنما لأهلى ، فكانت لى هريرة صغيرة ، فكنت أجعلها فى شجرة بالليل ، فإذا كان النهار ذهبت بها معى فكنونى بها !.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى حكاية عن يوسف « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » سورة يوسف الآية ٥٥ .

وقال أبو هريرة : سألني النبي صلى الله عليه وسلم حين هاجرت إليه مسلماً : ممن أنت ؟ قلت : من دَوْس ! قال : ما كنت أرى أن فى دوس أحداً فيه خير !..

وصلى أبو هريرة حين قدم المدينة مهاجراً خلف سَبَّاع ابن عرْفطة خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم على المدينة أثناء غزوة خيبر ، فقرأ سباع « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »[1].

فلما تأملها وأدرك معانيها ، قال : ويل لأبى ! قلَّ رجل كان بأرض الأزد إلا وكان له مكيالان : مكيال لنفسه وآخر يبخس به الناس !.

وكان مروان بن الحكم أمير المدينة على عهد معاوية بن أبى سفيان ، ربما استخلف أبا هريرة ، فيركب حماراً ببرذعة ، وفى رأسه مِقْود من ليف ، فإذا صادفه أحد فى طريقه قال : الطريق فقد جاء الأمير !.

وكان أبو هريرة — على ظرفه وتواضعه — قويًّا فى الحق شجاعاً فى إبداء الرأى ، ناصر عثمان بن عفان حين قامت الفتنة وأقام معه داخل داره ومعه سلاحه لا يبرحها إلى أن قتل ونعى

(١) سورة المطففين . الآيات الثلاث الأول .

بشدة على من تخلف عن نصرته ، ولما رمى المحاصرون رجلا فى الدار فقتلوه ، أفتى عثمان بأنه قد حل القتال فأبى لأنه لم يكن يريد أن تقوم فى المؤمنين فتنة بسببه ! .

وناصب مروان بن الحكم العِداء ؛ لأنه أبى على آل الحسن ابن على بن أبى طالب حين مات أن يدفنوه مع جده النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبطل دعواه فى أن إمارته تجيز له هذا التعسف ، ومن أجل ذلك تطاول عليه مروان فقال : إن الناس يقولون : أكثر أبو هريرة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما قدم قبل وفاته بيسير ! .

فقال أبو هريرة قدمت ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر وأنا يومئذ قد زدت على الثلاثين ، فأقمت معه حتى مات ، أدور معه فى بيوت نسائه ، وأخدمه وأغزو معه ، وأحج فى صحبته ، فكنت أعلم الناس بحديثه ؛ وقد والله سبقنى قوم بصحبته ، فكانوا يعرفون لزومى له ، فيسألونى عن حديثه ، منهم عمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، ولا والله لا يخفى على كلُّ حديث كان بالمدينة ، وكل من كانت له من رسول الله

صلى الله عليه وسلم منزلة ؛ ومن أخرجه من المدينة لكيلا يساكنه فيها(١)

فوجم مروان ولم يعد إلى مساءته منذ هذا الحديث .

* * *

ومرض أبو هريرة مرض الموت فعاده مروان بن الحكم ، فقال : « شفاك الله يا أبا هريرة ، فقال : « اللهم إنى أحب لقاءك فأحبب لقائى ، فلم يكد مروان يبرح الدار حتى فاضت روحه ، وكان ذلك سنة سبع وخمسين هجرية وله من العمر ثمان وسبعون سنة .

(١) عرض أبو هريرة فى العبارة الأخيرة من كلامه بالحكم بن أبى العاص والد مروان ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نفاه من المدينة إلى الطائف لأنه كان يتجسس عليه ، ويحاكيه فى حركاته الشريفة من باب السخرية والتهكم .

عدي بن حاتم الطائي

هو ولد حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الجود والسخاء ، وكان هو نفسه رئيساً في قومه ، كريماً على نفسه وعلى الناس ، وكان يدين بالنصرانية ، فلما ظهر الإسلام سمع به من بُعد . وتصوره على حقيقته فأضمر له العداء ، وامتلأ قلبه حقداً على النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان يقول : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لمحمد حين سمع به مني !.

وبلغ من شدة كراهيته للرسول الكريم أنه أعد خيلا جياداً على أهبة دائمة للسفر ؛ ليركبها ويفرّ بها إذا غشيت خيل محمد بلاده .

وحدث أن أرسل النبي صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة من الهجرة علي بن أبي طالب على رأس خمسين فارساً ؛ ليهدم « الـقِلْـس » صنم طيء ، فقاومه عبّاده فهزمهم وأحرقه وملأ يده من السبي والغنائم ، وكان من بين السبي السَّـفَّـانة(١) ، بنت حاتم وأخت عدي أما عدي ، فقد ركب خيله وفر إلى الشام !.

ولما وصل علي إلى المدينة أوصى السَّـفَّـانة أن تستشفع عند

---

(١) السفانة في الأصل : هي اللؤلؤة .

النبي صلى الله عليه وسلم بأبيها حاتم ومآثره ، ففعلت ، ولما عرفها الرسول الكريم رحّب بها ، ومنّ عليها بالحرية ، وأعطاها عطاء جزيلا أطلق لسانها بالشكر والثناء ، فقالت :

شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردها عليه .

ثم استضافها الرسول عنده حتى تجد من تذهب فى حراسته إلى موطنها ، وجاء المدينة وفدٌ من عشيرتها فذهبت معه حين عادا .

وكانت السّفّانة قد أعجبت بمكارم أخلاق الرسول العظيم ، وعز عليها أن يحرم أخوها من صحبته ، ولا سيما أنه لم يتصوره على حقيقته ، بل حكم عليه متأثراً بالأراجيف التى كان مشركو العرب يذيعونها عنه ، فرحلت إليه وأنّبته على فراره وتركها أسيرة ، ثم قصّت عليه قصتها مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكيف بالغ فى إكرامها والحفاوة بها ! .

فقال عدى : وماذا ترين ؟

قالت: أرى أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبيّا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تذلّ عنده ، وأنت أنت !.

فقال : هذا هو الرأى ؛ وخرج حتى أتى النبى صلى الله عليه

وسلم ، فسلم عليه ، فقال : مَنِ الرجل ؟ قال : عدى بن حاتم ؛ فرحب به الرسول الكريم ، واصطحبه إلى بيته ؛ وبينما هما فى الطريق اعترضت النبى صلى الله عليه وسلم امرأة عجوز بادية الضعف والمسكنة، فوقف يحدثها ويلاطفها ؛ فقال عدىّ يحدث نفسه : والله ما هذا بملك ؛ ولما وصلا إلى بيت الرسول الكريم قدَّم له وسادته ليجلس عليها ؛ فأبى عدى أن يفعل ؛ واقترح أن يجلس عليها الرسول نفسه ، فأصر على رأيه ؛ وجلس على الأرض. ومرة أخرى قال عدى لنفسه : ليست هذه أخلاق الملوك ! .

وعرض النبيّ صلى الله عليه وسلم الإسلامَ على عدى ، فقال إنى على النصرانية ؛ فاظهره على وهمه وبين له أنه ليس على دين صحيح بل إنه يخلط بينْ النصرانية وشطحات الجاهلية ؛ وشرح له عقائد الإسلام ومذاهبه العظيمة ، ثم قال :

لعلك ياعدى إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ماترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ! ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ماترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية(١) على بعيرها حتى تزور هذا البيت لاتخاف ، ولعلك إنما

(١) القادسية : اسم بلد بالشام .

يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم ! ».

وما كاد الرسول الكريم ينتهى من قوله حتى كان الله قد شرح صدر عدى للإسلام ، وقد أثر عنه فيما بعد قوله :

قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة والله لتكونن : قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ، وأيم الله لتكونن الثالثة : ليفيضنَّ المال حتى لا يجد من يأخذه !.

* * *

وحسُن إسلام عدى بن حاتم جدًّا ، وبرزت مواهبه الشخصية ، وكان خيراً وبركة على الإسلام وعلى العرب جميعاً وقومه خاصة فى حروب الردَّة .

وبيان ذلك أن معظم القبائل العربية قد ارتدت بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن لم يرتد منع الزكاة ، ولكن أبا بكر ألحق أولئك بالكفار وصمم على حربهم حتى يفيئوا إلى الإسلام الكامل .

وكان طليحة بن خويلد الأسدى ، قد ادَّعى النبوة ، والتف

حوله قومه بنو أسد وأوشاب كثيرة من العرب ، واستفحل أمره ، وأصبح أعظم خطر يتهدد المدينة ؛ لقربه منها ، وكان من أمره أنه دعا طيئاً — وهم قوم عدى بن حاتم — للانضمام إلى دعوته فسارع إليه بعض أحداثها !

ولما سار جيش خالد بن الوليد لمحاربة المرتدين أمره أبو بكر أن يبدأ بطيء وأرسل عديًّا إلى قومه ليحول بينهم وبين ممالأة طليحة ومن لفَّ لَفَّه، فرحل إليهم ودعاهم إلى الاستمساك بالدين والوقوف مع الجماعة، فأبوا عليه ذلك ، وقالوا : لا نبايع أبا الفصيل[1] أبداً !.

فقال عدى : لئن أتاكم ياقوم ليبيحنّ حريمكم حتى تكنون أبا بكر بالفحل الأكبر ، فشأنكم به ، وما زال يعظهم تارة ويرهبهم من جيش خالد تارة أخرى حتى لانوا له ، ثم طلبوا إليه أن يستقبل جيش خالد ويبقيه بعيداً عنهم ؛ حتى يستردوا أحداثهم الذين سارعوا إلى طليحة بحجة الحاجة إليهم لمقاومة جيش خالد ؛ إذ لو عرف طليحة أن طيئاً ستخرج عليه وتنحاز إلى المسلمين لقتل من معه منهم ، أو استبقاهم رهائن عنده على الأقل ! .

---

(١) كان المرتدون يكنون أبا بكر بهذه الكنية .

وذهب عدى إلى خالد : فقال له : ياخالد أمسك عنى ثلاثة أيام يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك ، وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار ، وتحمل جيشك عبء قتالهم . فاستجاب له خالد ، وانتظر فى مكانه حتى عاد إليه عدى فى الموعد ، وقد استردقومه أبناءهم الذين كانوا مع طليحة وانضموا جميعاً إلى المسلمين.

وارتحل خالد بعد ذلك يريد جَديلة ، فقال له عدى إن طيئاً كالطائر ، وإن جَديلة أحد جناحى طيء . فأجلنى أياماً لعل الله أن ينقذ جَديلةَ كما أنقذ الغوث . وكان خالد عند حسن ظنه فاستجاب له فى الثانية كما استجاب له فى الأولى ! .

وذهب عدى إلى جديلة ؛ وأخذ يرغبها ويرهبها ويبصرها بالأمور ويعظم أمر الإسلام حتى وفقها الله للخير ، فنزلت على رأيه وبايعته ، ولحق بالمسلمين منها ألف فارس فكان عدى خير مولود ولد فى أرض طيء وأعظمه عليهم بركة [1] .

وانضم عدى إلى جند خالد فى حروب المرتدين ، فلما فرغ خالد منها وسيره أبو بكر إلى العراق ، وسار معه وأبلى فى الحرب بلاء حسناً ، وكان من قواد جيش خالد .

---

(١) من تاريخ الطبرى بتصرف يسير فى التعبير .

وفد عدى بن حاتم على عمر بن الخطاب أثناء خلافته . فقال له : ما أظنك تعرفنى ! فقال عمر : كيف لا أعرفك وأول زكاة بيضت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة طيء ! أعرفك : آمنت إذ كفروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، ووفّيت إذ غدروا !

وكان عدى على سنة أبيه حاتم من الكرم والجود ، يقصد إليه الشعراء وذوو الحاجة فيسخو عليهم فى العطاء ، ويكثر لهم من الحِبَاء .

وكان فى الغاية القصوى من صدق الإيمان ورسوخ العقيدة ، ومما يؤثر عنه قوله :

ما دخل وقت صلاة قط إلا وأنا أشتاق إليها .

* * *

نزل عدى بن حاتم الكوفة وسكنها ، وشهد مع على ابن أبى طالب مشاهده أيام الفتنة ، ومات سنة تسع وستين هجرية وقد جاوز المائة من السنين .

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها للآن :

١ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين — للأستاذ عباس محمود العقاد
٢ — الاشتراكية والشيوعية ...... للأستاذ علي أدهم
٣ — الظاهر بيبرس في القصص الشعبي — للدكتور عبدالحميد يونس
٤ — قصة التطور .... للدكتور أنور عبد العليم
٥ — طب وسحر .... للدكتور پول غليونجي
٦ — فجر القصة .... للأستاذ يحيي حقي
٧ — الشرق الفنان .... للدكتور زكي نجيب محمود
٨ — رمضان .... للأستاذ حسن عبدالوهاب
٩ — أعلام الصحابة .... للأستاذ محمد خالد

الثمن قرشان فقط